الباب الثاني:
في وجوه الدلائل المأخوذة من الشمس والقمر والنجوم

وفيه فصول:

الفصل الأول: في تقرير دليل الخليل عليه أفضل الصلاة والتسليم في قوله:

﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: 76].

قال تعالى حاكياً عنه: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: 74].

اعلم أن قبل الخوض في التفسير لا بدّ من مقدمات:

المقدمة الأولى: أنه ﷻ كثيراً ما يحتج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ﷺ، وذلك لأنه رجل يعترف بفضله جميع الطوائف والملل؛ فالمشركون كانوا معترفين بفضله، مستبشرين بأنهم من أولاده، فاليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره، فلا جرم ذكر الله تعالى حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين.

واعلم أن هذا المَنصب العظيم ـ وهو اعتراف أكثر الخلق بفضله وعلو مرتبته ـ لم يتفق لأحد كما [اتفق][1] للخليل ﷺ.

---

(1) [اتفق] في الأصل: يتفق.

والسبب فيه أنّ بين العبد والربّ معاهدة. كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] فإبراهيم عليه السلام أوفى بعهد العبودية والله تعالى شهيد بذلك على سبيل الإجمال تارة وعلى سبيل التفصيل أخرى:

أمّا الإجمال ففي آيتين: إحداها قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124] وهذا شهادة من الله عز وجلّ له بأنّه أتمّ العبودية، الثانية قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: 131].

وأما التفصيل: فهو أنه ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد مع أبيه وهو قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42] وناظر أيضاً في هذه المسألة مع قومه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: 76] إلى آخره، وناظر أيضاً مع ملك زمانه في هذه المسألة أيضاً فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258] ثم ناظر أيضاً مع قومه بالفعل وهو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ثم إن القوم ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: 68].

يروى: أن لما وضع في المنجنيق صيّحت السمٰوات والأرضون وكل المخلوقات سوى الثقلين، وقالوا: ربنا ليس في الأرض من يعبدك ويوحدك غير إبراهيم ثم إنه يحرق بالنار؟ ائذن لنا في نصرته، فأوحى الله تعالى إلى السماء والأرض والجبال والبحار: إذا استغاث بكم فأغيثوه وإن استنصركم فانصروه وإن دعاني فأنا وليه وناصره وكفاني ولياً ونصيراً، فلمّا أن أرادوا إلقاءه في النار قال: يا أحد ويا صمد بك أستغيث وعليه أتوكّل حسبي الله ولا إلٰه إلا هو نعم الوكيل، فجاءه ملك المطر وعرض نفسه عليك فلم يلتفت إليه، وجاء خازن الرّيح وقال: إن شئت أذنت للريح بفرق الناس في شرقها وفي غربها فلم يلتفت، فرمي من المنجنيق، قبل أن يصل إلى النار قال له جبريل عليه السلام: الآن جاء وقتي فعرض نفسه عليه وقال: هل من حاجة؟ وقال: أمّا إليك فلا، فقال له جبريل عليه السلام: أفلا ترفع حاجتك إلى الله تعالى؟ فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

فإن قيل: ألستم رويتم أنهم [لمّا][1] أرادوا إلقاءه في النار دعا الله تعالى

(1) [لمّا] في الأصل: كما.

واستغاث به؟ ثم ذكرتم أنه في هذه الحالة لم يذكر شيئاً فما الفرق بين الحالين؟

قلنا: الإنسان قبل الوقوع في البلاء لا يكون [طمعه][1] منقطعاً عن النّفس فيشتد عليه البلاء فعند ذلك يشتغل بالدُعاء، أمّا عند الوقوع فيه ينقطع طمعه عن النفس ولا حجاب عن الرّب إلا الاشتغال بالنفس فإذا زال ذلك الحجاب تجلّى في قلبه نور جلال الله فحينئذ يستنكف أن يرجع إلى الله في خلاص النفس.

وفي بعض الروايات أنه لما قال له جبريل عليه السلام: لم لا تستعين بالرب تعالى؟ فقال: على ماذا؟ قال: على النفس، قال: النفس [مصونة][2] لا خطر لها فلا أسأل من علام الغيوب نجاة الجسم المعيوب، فقال جبريل عليه السلام: استعن على القلب، فقال الخليل: القلب للربّ فليعمل ما شاء بالقلب؛ فقال جبريل عليه السلام: استعن على الروح، فقال الخليل: الروح عارية والعارية مؤداة، فقال جبريل: استعن على النار، قال الخليل: من أوقد النار؟ قال: العدوّ، قال: ومن قضى به؟ قال: الحبيب، قال الخليل: فالحبيب [راضٍ][3] بحكم الحبيب.

فلّما انقطع نظر الخليل عن الوسائط والأسباب فالحق أيضاً دفع الوسائط والأسباب فقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69].

ثم إنه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: 102] فعند هذا كان إبراهيم عليه السلام من الفتيان، وسلّم نفسه للعرفان، ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان، وكمل عهد عبوديته، ثم إنه سأل بعد ذلك ربّه فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: 84]، فوجب في كرم الحق أن يحقق مطلوبه في هذا السؤال فلا جرم أجاب دعاءه وقبل نداءه وجعله مقبول جميع الفرق والطوائف إلى آخر القيامة.

ولمّا كانت العرب معترفين بفضله لا جرم جعل الله تعالى مناظرته مع قومه حجة على مشركي العرب.

المقدمة الثانية: اعلم أنّه ليس في العالم أحد يثبت لله شريكاً يساويه في

---

(1) [طعمه] في الأصل: طبعه.
(2) [مصونة] في الأصل: مغبونة.
(3) [راضٍ] في الأصل: راضي.

الوجوب والقدرة والعلم والحكمة، لكن الثنوية يثبتون إلهين أحدهما حكيم يفعل الخير، والثاني سفيه يفعل الشرّ.

أما الاشتغال بغير عبادة الله ففي الذاهبين إليه كثرة منهم عبدة الكواكب وهم فرقتان: منهم من يقول: إنّ الله خلق هذه الكواكب وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها، فهذه الكواكب هي المدبرات لهذا العالم، قالوا: فيجب علينا أن نعبد هذه الكواكب، ثم إن هذه الكواكب هي مشتغلة بعبودية الله وطاعته.

ومنهم قوم ينكرون الصانع ﷻ ويقولون: هذه الأفلاك والكواكب أجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم والفناء وهي المدبر لهذا العالم وهؤلاء هم الدهرية الخالصة.

وممن يعبد غير الله النصارى الذين يعبدون المسيح، ومنهم أيضاً عبدة الأوثان والأصنام.

واعلم أن هٰهنا بحثاً مهمّا لا بدّ منه وهو أنّه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان، وذلك لأن أقدم الأنبياء الذين وصل إلينا تأريخهم هو نوح صلوات الله عليه وسلامه، وهو إنّما جاء بالردّ على عبدة الأصنام على ما أخبر الله عنه في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: 23] فعلمنا أن عبادة الأصنام كانت موجودة قبل نوح ﷺ، وهي باقية إلى الآن بل أكثر سكان أطراف العالم مستمرون عليه، والمذهب الذي هذا شأنه يمتنع أن يكون معلوم البطلان بضرورة العقل، لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السماء والأرض علم ضروريّ فيستحيل اتفاق كثير من العقلاء عليه، فظهر أنه ليس دين عبدة الأوثان كون الصنم خالقاً للسماء والأرض.

والعلماء ذكروا فيه وجوهاً:

الأول: أنّ الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مرتبطة بتغيرات أحوال الكواكب، فإنّ بحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس تحدث الفصول الأربعة، وبسبب حدوث الفصول الأربعة حدثت الأحوال المختلفة في هذا العالم، ثم إنّ الناس يعلمون سائر أحوال الكواكب واعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفية وقوعها في طوالع الناس؛ فلمّا اعتقدوا ذلك غلب على ظنون أكثر الخلق كون المصدر

لأحوال هذا العالم وحوادثه اتصالات هذه الكواكب وتأثيراتها، ولما اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها.

ثم منهم من اعتقد أنّها واجبة الوجود ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للإله الأكبر إلّا أنهم قالوا: هي مخلوقة للإله الأكبر وخالقة لأحوال هذا العالم، وهؤلاء هم الذين اعتقدوا أنها وسائط بين الإله الأكبر وبين أصحاب هذا العالم وعلى كلا التقديرين فالقوم مشتغلون بعبادتها وتعظيمها والخضوع لها.

ثم إنّهم لمّا رأوا أن الكواكب قد تستتر عن الأبصار في أكثر الأوقات اتخذوا لكل كوكب صنماً عن الجوهر المنسوب إليه، فاتخذوا صنم الشمس من الذهب وزينوه بالأحجار المنسوبة إلى الشمس وهو الياقوت والألماس، واتخذوا صنم القمر من الفضّة وعلى هذا القياس.

ثم أقبلوا على عبادة هذه الأصنام وغرضهم من هذه العبادة عبادة تلك الكواكب والتقرب إليها؛ فهذه الأصنام عندهم كالقبلة، والمعبود عندهم في الحقيقة تلك الكواكب.

وعند هذا البحث يرجع حاصل دين عبدة الأصنام إلى عبادة الكواكب.

وأمّا الأنبياء صلوات الله عليهم فلهم هٰهنا مقامان:

الأول: إقامة الدلالة على أنّ هذه الكواكب لا تفعل شيئاً.

الثاني: أنّ بتقدير أنها شيء لكن دلالة الحدوث حاصلة فيها فلا بد من أن تكون مخلوقة لإله قديم أزليّ، والاشتغال بعبادة الأصل أولى من الاشتغال بعبادة الفرع والعبد.

وممّا يدل على صحة ما رويناه عن عبدة الأوثان أنّه تعالى لمّا حكى عن الخليل صلوات الله عليه وسلامه أنه قال: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: 74] فإنّه عني بهذا الكلام أنّ عبادة الأصنام جهل وضلال.

ثم لمّا اشتغل بذكر الليل أقام الدليل على أن الكواكب والشمس والقمر لا

يصلح شيء منها للإلٰهية، وهذا يدل على أن [عبادة][1] الأوثان يرجع حاصله إلي القول بإلٰهية الكواكب والشمس والقمر وإلّا لم يكن بين قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وبين قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: 76] [تعلق][2] ولا مناسبة.

إذا عرفت هذا ظهر أنه لا طريق إلى إبطال القول بعبادة الأوثان إلّا بإبطال كون الشمس والقمر والكواكب إلٰهاً [و][3] هو الذي حكى الله عن إبراهيم في هذه الآية.

الوجه الثاني: في شرح حقيقة مذهب من قال بعبادة الأوثان ما ذكره أبو معشر جعفر ابن محمد البلخي المنجّم، قال في بعض مصنفاته أن كثيراً من أهل الصّين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته إلاّ أنهم كانوا يعتقدون أنه تعالى جسم و[ذو][4] صورة كأحسن ما يكون من الصور، وهكذا أيضاً للملائكة صورة حسنة إلّا أنهم كلهم قد احتجبوا عنا بالسماء فلا جرم اتخذوا صوراً وتماثيل أنيقة النظر حسنة الرواه على الصورة التي كانوا يعتقدونها من صورة الإلٰه والملائكة ثم يعتكفون على عبادتها قاصدين به طلب الزلفى من الله سبحانه ومن ملائكته.

فإن صحّ ما ذكره أبو معشر فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد الجسمية في الله سبحانه وتعالى.

الوجه الثالث: أن أصحاب الأحكام من المنجمين كانوا يعيّنون أوقاتاً في السنين المتطاولة نحو الألف والألفين ويزعمون: أنّ من اتّخذ طلسماً في ذلك الوقت على الوجه الخاص فإنه ينفع في أحوال مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفع الآفات، وكانوا إذا اتخذوا ذلك الطلسم عظّموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به فلمّا بالغوا في ذلك التعظيم صار ذلك كالعادة، ولمّا طالت الأزمنة فالجهال نسوا مبدأ الأمر واشتغلوا بعبادتها.

ومما يدلّ على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه الآية حكاية عن

---

(1) [عبارة] في الأصل: عبدة.
(2) [تعلق] في الأصل: تعلقاً.
(3) [و] زيادة يقتضيها السياق.
(4) [ذو] في الأصل: ذوا.

إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 81]؛ وذلك أنه عليه السلام لمّا طعن في إلٰهية تلك الأصنام وحسن عبادتها [خوّفوه][1] بوصول بلاء إليه من تلك الأصنام، وقال تعالى أيضاً حكاية عن قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: 54].

الوجه الرابع: أنّه كلما مات منهم رجل كبير في اعتقادهم بحيث يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة مقبول الشهادة عند الله تعالى اتخذوا صنماً على صورته يعبدونه على اعتقاد أنّ ذلك الإنسان يصير شفيعاً لهم يوم القيامة على ما حكى الله عنهم هذه المقالة في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18] وقال أيضاً: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

الوجه الخامس: لعلّ القوم اتخذوا هذه الأصنام محاريب لصلواتهم وطاعتهم يسجدون إليها [لا لها][2] كما أنا نسجد إلى القبلة لا للقبلة ثم لمّا دامت هذه الحالة ظنّ الحمقاء من القوم أنّها هي المعبودة.

الوجه السادس: لعلّ القوم كانوا من المجسمة أو من الحلولية: اعتقدوا جواز حلول الله في بعض هذه [الصور][3] والأجسام على هذا التأويل.

فهذه هي الوجوه التي يمكن حمل مذهب عبدة الأصنام عليها وبالله التوفيق.

إذا عرفت هاتين المقدمتين فلنرجع إلى تفسير هذه الآية:

أمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام:74] ففيه مسألتان:

الأولى: في آزر قولان:

الأول أنه والد إبراهيم ولهم في ذلك دلائل:

الحجة الأولى: ظاهر لفظ القرآن في هذه الآية يدلّ على ذلك ثم أن ظاهر هذه الآية متأكد بآيات آخر منها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾

---

(1) [خوفوه] في الأصل: حرقوه.
(2) [لا لها] في الأصل: لأنها.
(3) [الصور] في الأصل: الصورة.

[مريم: 42] وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114] وكل هذه الآيات تدل على أنّ أبا إبراهيم كان كافراً عابداً للوثن.

الحجة الثانية: أنّ العرب سمعوا هذه الآية وكانوا أحرص الناس على تكذيب الرسول وأعظم الناس رغبة في براءة شجرة النسب عن كل عيب، فلو كان آزر لم يكن والد إبراهيم لتسارعوا إلى تكذيبه [ولوجدوا][1] في ذلك غنيمة عظيمة في الطعن فيه.

الحجة الثالثة: أنه تعالى ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه في آيات كثيرة ولم يذكر اسم العمّ في القرآن فيتعذر حمل لفظ الأب على العمّ في هذه الآية.

والقول الثاني: أنّ آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام واحتجوا بوجوه:

الحجة الأولى: أن آباء الأنبياء ما كانوا كفاراً، ويدل عليه وجوه:

منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 218-219] قيل: معناه: أنه كان ينقل روحه من ساجد إلى ساجد؛ فبهذا التقدير فالآية [دالة][2] على أن جميع آباء محمد ﷺ كانوا مسلمين، وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام ما كان من الكافرين، أقصى ما في الباب أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ على وجوه أخرى: منها: أنه لـمّا نسخ فرض قيام الليل طاف الرسول عليه أفضل السلام تلك الليلة على بيوت أصحابه لينظر ماذا يصنعون؟ لشدة حرصه على ما يظهر منه من الطاعات فوجدها كسوق الزنابير لكثرة ما يسمع من دندنهم بذكر الله، فقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ طوفه عليه السلام على الساجدين في تلك الليلة، ومنها المراد: ويراك حين تقوم للصلاة [بالناس][3] جماعة، وتقلبه في الساجدين كونه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده لأنه كان إماماً لهم، ومنها: أنه لا يخفى على الله حالك كلّما قمت وتقلبت مع الساجدين في الاشتغال بأمور الدين، ومنها: المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه، من قوله: أتموا الركوع والسجود فإني أراكم من وراء ظهري.

---

(1) [ولوجدوا] في الأصل: وليجدوا.
(2) [دالة] في الأصل: دلالة.
(3) [بالناس] في الأصل: الناس.

فهذه الوجوه الأربعة وإن كانت الآية محتملة لها إلّا أن الوجه الذي ذكرناه أيضاً محتملة له، والروايات وردت بالكلّ ولا منافاة بين هذه الوجوه فوجب حمل هذه الآية على الكل ومتى صحّ ذلك ثبت أن والد إبراهيم ما كان من عبدة الأوثان.

ومما يدلّ على أنّ آباء محمد ﷺ ما كانوا من المشركين قوله ﷺ: **«لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»**.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28] فوجب أن لا يكون أحد من أجداده صلوات الله عليه مشركاً.

الحجة الثانية: على أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام؛ لأن هذه الآية دالة على أن إبراهيم عليه السلام شافه آزر بالغلظة ومشافهة الأب بالغلظة لا يجوز، وهذا يدل على أن آزر ما كان والد إبراهيم.

وإنما قلنا: أن إبراهيم شافه آزر في هذه الآية بالغلظة لوجهين:

الأول: إنه قرىء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرُ﴾ [الأنعام: 74] بالضمّ، وهذا يكون محمولاً على النداء ومخاطبة الأب ونداؤه بالاسم من أعظم أنواع الجفاء.

الثاني: أنّه قال لآزر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا من أعظم أنواع الإيذاء.

فثبت أنه عليه السلام شافه آزر بالغلظة، وإنما قلنا: أنّ مشافهة الأب بالغلظة لا يجوز لوجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: 23]، وهذا عام في حق المسلم والكافر، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وهذا أيضاً عام.

الثاني: أنه تعالى لمّا بعث موسى عليه السلام إلى فرعون أمره بالرفق معه فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: 44] والسبب في ذلك أن يصير هذا رعاية لحق تربية فرعون؛ فهاهنا الوالد بالرفق معه أولى.

الثالث: أن الدعوة مع الرّفق أكثر تأثيراً في القلب، وأمّا التغليظ فإنه ينفّر

المستمع عن قبول الحق، ولهذا قال تعالى لنبّينا محمد ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، فكيف تليق بإبراهيم هذه الخشونة مع أبيه وقت الدّعوة؟

الرابع: أنه تعالى حكى عن إبراهيم الرفق الشديد مع هذا المسمى بالأب وهو قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42] ثم إن الإنسان غلّظ معه في القول وهو قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ثم إن إبراهيم ما ترك الرفق الشديد مع هذا المسمّى بالأب بل قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: 47] وإذا كان عادة إبراهيم الرفق والقول الحسن، فكيف يليق له أن يظهر الخشونة والغلظة مع أبيه؟ فثبت بهذه الحجة أن آزر ما كان والد إبراهيم.

الحجة الثالثة: على أن آزر ما كان والد إبراهيم: أنّه جاء في كتب التواريخ أن اسم أب إبراهيم تارخ وأمّا آزر فهو عمّ إبراهيم.

ثم إن القائلين بهذا القول أجابوا عن دليل أصحاب القول الأول فقالوا: القرآن وإن دلّ على تسمية آزر بالأب، إلاّ أن هذا لا يدل على القطع بكونه والداً له؛ وذلك لأن لفظ الأب يطلق على العمّ، قال تعالى حكاية عن أولاد يعقوب: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: 133] فسموا إسماعيل أباً ليعقوب عليه السلام مع أنّ إسماعيل كان عمّا ليعقوب. وقال رسول الله ﷺ: «**ردوا عليّ أبي**» يعني العباس.

وأيضاً يحتمل أن آزر كان أب أم إبراهيم وقد يقال له الأب.

قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84] إلى قوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ فجعل من ذريّة إبراهيم مع أن إبراهيم عليه السلام كان جدّه من قبل الأمّ، وبهذا ظهر الجواب عن الحجة الثانية؛ وذلك لأنّ تسمية العمّ بالأب مشهور في اللغة العربية، فلهذا السبب ما كذبوه في هذه الآية، هذا تمام الكلام في نصرة هذا القول.

واعلم أنّ القول الأول أولى وذلك لأنّ ظاهر لفظ الأب يدل على الوالد الحقيقي، أمّا التمسك بقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ فهو محمول على سائر الوجوه، وما نحمله على أن روحه كان ينتقل من ساجد إلى ساجد محافظة على ظاهر الآية التي تمسكنا بها وهو قوله: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾.

وأمّا الحجة الثانية: فجوابها أنكم تمسكتم بعمومات دالّة على أنه لا يجوز

إظهار الخشونة مع الأب فنقول: إن قلنا بما ذكرت سلمت تلك العمومات عن هذا التخصيص إلاّ أنه وجب حمل لفظ الأب على المجاز، وإن أجرينا لفظ الأب على حقيقته لزمنا القول بإدخال التخصيص في تلك العمومات لكن بيّنا في أصول الفقه أنّه مهما وقع التعارض بين المجاز والتخصيص، كان التزام التخصيص أولى فكان الترجيح لجانبنا، والله أعلم.

وإذا عرفت هذه المسألة فنقول: الذين قالوا: إن آزر ما كان والد إبراهيم لهم قولان: منهم من قال: أنه كان عمّ إبراهيم عليه السلام وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: أنّ آزر اسم صنم، فعلى هذا الوجه في الآية أقوال: الأول: أن ذلك الرجل إنما سمي بهذا الاسم لأنه جعل نفسه مختصاً بعبادته؛ ومن بالغ في محبة أحد فقد يجعل المحبوب اسماً للمحبّ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: 71]، الثاني: أن يكون المراد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

المسألة الثانية: قرىء: آزر بالنصب وهو عطف بيان لأبيه [و][1] بالضمّ على النداء وبيّنا أن بعضهم قرأ آزر بهاتين القراءتين.

وأما قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 142] فقد قرىء هارون بالنصب [محمولاً][2] على البدل ،لأن النداء بالاسم استخفاف بالمنادى ،و هو لائق في قصة إبراهيم لأنه كان كافراً مصرّاً على كفره فحسن أن يخاطب بالغلظة زجراً عن ذلك القبح.

أما قصة موسى عليه السلام فقد كان موسى يستخلف هارون على قومه؛ فما كان الاستخفاف لائقاً بهذا الموضع، فلا جرم ما كانت القراءة بالضمّ جائزة.

أمّا قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ فالمعنى ظاهر وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الناس اختلفوا في تفسير لفظ الإله، والأصح أنه هو المعبود، وهذه الآية تدلّ على هذا القول؛ لأنهم ما أثبتوا للأصنام إلاّ وصف المعبودية، ولهذا السبب قال إبراهيم: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدل هذا على أن تفسير لفظ الإلٰه هو المعبود.

---

(1) [وبالضم] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [محمولاً] في الأصل: محمول.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن وجوب معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره معلوم بالعقل؛ وذلك لأن إبراهيم عليه السلام حكم عليهم بالضلال، ولولا الوجوب بالعقل لما صحّ ذلك، وهذا الاستدلال ضعيف.

المسألة الثالثة: اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام في هذه الآية على الحجة العقلية على فساد مذهبهم من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدل على أنهم كانوا يعتقدون كثرة الآلهة، إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل على ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

الثاني: أنه لو كان لها قدرة على الخير والشرّ لكان الصنم الواحد كافياً؛ فلمّا لم يكن الواحد كافياً دلّ على أنّها وإن كثرت فلا منفعة فيها ألبتّة.

وأما قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فالمعنى ظاهر.

أمّا قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75] ففيه مسائل:

الأولى: الكاف في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كاف التشبيه وذلك إشارة إلى غائب جرى ذكره، والذي جرى ههنا ذكره فيما قبل هو أنه عليه السلام استقبح عبادة الأصنام بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 74] فالمعنى: ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السمٰوات والأرض.

وهٰهنا دقيقة عقلية وهو أن نور جلال الله ظاهر لائح غير منقطع ولا [زائل][1] ألبتة والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلّا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلّا الاشتغال بغير الله، وإذا كان الأمر كذلك فبقدر نزول هذا الحجاب يحصل ذلك التجلي؛ فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ إشارة إلى الاشتغال بغير الله، فإنّ كلّ ما سوى الله فهو صنم، ثم إنه عليه السلام استقبح ذلك منهم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ

(1) [زائل] في الأصل: بزائل.

وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فلما زال ذلك الحجاب بالكلية لا جرم تجلّى له ملكوت السمٰوات والأرض بالتمام فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75] [إشارة إلى أنه][1] بقدر زوال تلك الظلمات حصلت له هذه الأنوار وظهر أن قوله: وكذلك منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية.

فإن قيل: هذه [الإراءة][2] قد حصلت فيما تقدم من الزمان فكان الأولى أن يقال: وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض، فلم عدل عن هذه اللفظة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ﴾؟. **قلنا**: **الجواب عنه من وجهين**:

الأول: أن يكون تقدير الآية: وكذلك كنا نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض فيكون هذا على سبيل الحكاية عن الماضي والمعنى: أنه تعالى لمّا حكى عنه أنّه شافه أباه بالكلام الخشن تعصباً للدين فكأنه قيل: وكيف استجاز إبراهيم هذا؟ وكيف بلغ هذا المبلغ في قوة الدّين؟ فأجيب: بأنا كنّا نريه ملكوت السمٰوات والأرض من وقت طفولته لأجل أن يصير من الموقنين في زمن بلوغه.

الوجه الثاني: في الجواب ـ وهو أعلى وأشرف مما تقدّم ـ وهو أن نقول: ليس المقصود من [إراءة][3] الله تعالى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض هو مجرد أن يرى إبراهيم هذا الملكوت، بل المقصود أن يراها فيتوصل برؤيتها إلى معرفة جلال الله وقدسه وعلوه وعظمته، ومعلوم أن مخلوقات الله تعالى وإن كانت متباينة في الذوات وفي الصفات إلّا أنها في جهات دلالتها على الذات والصفات غير متناهية، فإن أهل الأصول قالوا: الجوهر الفرد يدل على قدرة الله وحكمته من جهات دلالاتها والصفات غير متناهية؛ وذلك لأنّ ذلك الجوهر يمكن وقوعه في كلّ واحد من الأحياز التي لا نهاية لها بدلاً عن الآخر ويمكن اتصافه بكل واحد من الصفات التي لا نهاية [لها][4] بدلاً عن الأخرى.

---

(1) [إشارة إلى أنه] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [الإراءة] في الأصل: الإرادة.
(3) [إراءة] في الأصل: رؤية.
(4) [لها] زيادة يقتضيها السياق.

ثم كلّ واحد من هذه الأحوال التقديرية دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، لأن كلها أحوال جائزة محتاجة إلى المرجح.

وإذا كان الجوهر الفرد والجزء الذي [لا يتجزىء كذلك][1] فكيف القول في كلّ ملكوت الله؟ فثبت أنّ دلالة ملكوت الله على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية، وحصول العلوم التي لها دفعة واحدة في العقل البشري محال، فإذاً لا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقب البعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر، وهذا يتعلق بالمستقبل لا بالماضي فلهذا السبب لم يقل (أريناه) بل قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ﴾ وهذا هو المراد من قول المحققين: السفر إلى الله، فإنه لا نهاية له.

المسألة الثانية: الملكوت هو الملك، والتاء للمبالغة كالرغبوت من الرغبة، والرهبوت من الرهبة.

واعلم أنّ في هذه الإراءة قولان:

الأول: أن الله أراه الملكوت بالعين؛ قالوا: إن الله شق له السمٰوات حتى رأى إلى العرش والكرسي وحيث ينتهي إلى فوقية العالم وشق الأرض إلى حيث ينتهي إلى تحتية العالم؛ فرأى ما في السمٰوات من العجائب والبدائع ورأى ما في بطن الأرض من العجائب.

والقول الثاني: أن هذه الإراءة كانت بعين البصيرة والعقول لا بعين البصر.

واحتج القائلون على صحة هذا القول بوجوه:

الحجة الأولى: أن ملكوت السمٰوات عبارة عن ملك السمٰوات والملك عبارة عن القدرة وقدرة الله تعالى لا ترى وإنما تعرف بالعقل، وهذا لازم إلا أن يقال: المراد بملكوت السمٰوات والأرض نفس السمٰوات والأرض إلا أنه يصير على هذا التقدير لفظ الملكوت عديم الفائدة وأنه لا يجوز.

الحجة الثانية: أن يقال: ذكر هذه الإراءة في أول الآية على سبيل الإجمال وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [ثم][2] فسّرها بعد ذلك بقوله:

---

(1) [لا يتجزى كذلك] في الأصل: لا يتحرك لذلك.

(2) [ثم] زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: 76] فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير لتلك الإراءة، فوجب القول بأنّ تلك الإراءة كانت عبارة عن هذا الاستدلال.

الحجة الثالثة: أنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: 83] والرؤية بالعين لا تصير حجة على قومه، لأنهم كانوا غائبين عنها، وكانوا يكذّبون إبراهيم فيها بل وما كان يحلّ لهم التصديق في تلك الدعوى بلا آية على صدقِ دعواه، وإنما كانت الحجة عليهم استدلاله بالنجوم من الطريق الذي نطق به القرآن؛ فإن تلك الإراءة ثابتة في حقه.

الحجة الرابعة: أن إراءة جميع العالم دفعة واحدة يفيد العلم الضروري بأن للعالم إلٰهاً قادراً على كل الممكنات، ومثلُ هذه الحالة تصلح لإنسان [عنده](1) استحقاق المدح [و](2) التعظيم، ألا ترى أنّ الكفار في الآخرة يعرفون الله تعالى بالضرورة وليس لهم في تلك المعرفة مدح ولا ثواب.

وأما الاستدلال بالمخلوقات على الصانع الحكيم القادر العليم فذلك هو الذي يفيد المدح والتعظيم.

الحجة الخامسة: أنه تعالى كما قال في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكذا قال في حق هذه الأمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53]، وكما كانت هذه الإراءة، بالقلب لا بالبصر؛ لأن الإراءة كانت حاصلة للكفار فكذا في حق إبراهيم يجب أن تكون كذلك.

الحجة السادسة: أنّه عليه السلام لما تمّم الاستدلال في النجم والشمس والقمر قال بعده: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79] فحكم على السمٰوات والأرض بكونها مخلوقة لأجل الدليل الذي ذكره في النجم والقمر والشمس، وذلك الدليل لو لم يكن عاماً في جميع السمٰوات والأرضين لكان الحكم العام بناء على الدليل الخاص خطأ، فثبت أن ذلك الدليل كان عاماً وكان ذكر النجوم والقمر والشمس كالمثال لإراءة الملكوت، فوجب أن يكون المراد من إراءة الملكوت تعريف كيفية دلالة تغيرها على حدوثها، ودلالة حدوثها على الافتقار، فتكون هذه الإراءة بالقلب لا بالعين.

---

(1) [عنده] في الأصل: عندها.

(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.

الحجة السابعة: أن اليقين عبارة عن العلم المستفاد من التأمل إذا كان مسبوقاً بالشك، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ كالعلة لتلك الإراءة؛ فيصير تقدير الآية: يرى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض لأجل أن يصير من الموقنين، فلمّا كان اليقين هو العلم المستفاد من النظر في الدليل وجب أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال.

الحجة الثامنة: أنّ جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد وهو أنها محدثة ممكنة، وكلّ محدث ممكن فهو محتاج إلى الصانع.

وإذا عرف الإنسان هذا الوجه الواحد كفاه ذلك في الاستدلال على الصانع. وكأنّه بمعرفة هاتين المقدمتين فقد طالع جميع الملكوت بعين عقله، وسمع لشهادتها بالاحتياج والافتقار بسمع عقله، وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة ألبتة.

ثم أنها غير شاغلة عن الله تعالى بل هي شاغلة للقلب والروح بالله، أمّا رؤية العين فالإنسان لا يمكنه أن يرى بالعين أشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال، ألا ترى أن من نظر إلى صفحة مكتوبة فإنه لا يرى من تلك الصفحة رؤية تامة كاملة إلا حرفاً واحداً، فإن حدق بصره إلى حرف آخر وشغل بصره صار محروماً عن إدراك الحرف الأول وعن إبصاره.

فثبت أن رؤية الأشياء الكثيرة دفعة واحدة غير ممكنة، وبتقدير أن يمكن ذلك إلا أنّ هذه الرؤية غير باقية، وبتقدير أن تكون باقية لكنها شاغلة عن الله تعالى، ألا ترى أنه تعالى مدح محمداً ﷺ في تركها فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: 17]، فدلّت هذه الدلائل على أنّ حمل هذه الإراءة على رؤية القلب أولى.

فإن قيل: رؤية القلب بهذا التفسير حاصلة لجميع الموحدين فأي فضيلة تحصل لإبراهيم عليه السلام بسببها؟

قلنا: جميع الموحدين والمستدلين يشتركون في معرفة حدوث العالم والاستدلال به على الصانع، فأما الاستغراق في هذا الاستدلال والتأمل في كيفية دلالة كل واحد من الممكنات والمحدثات في عالم الأجسام والأرواح وذرات الأرضين والسمٰوات، ثم نرى هذه الحاصلة في كل حين وأوان ولحظة وزمان على ما هو المراد

بقوله: ﴿نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ﴾ [الأنعام:75] [بدلاً][1] من قوله: (أرينا إبراهيم)، فهذه الحالة لا تحصل إلا للفضلاء[2] من الأنبياء ﷺ كإبراهيم وموسى وعيسى.

المسألة الثالثة: اختلفوا في الواو في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ وذكروا فيها وجوهاً:

الأول: الواو زائدة، والتقدير: نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض ليكون من الموقنين.

والثاني: التقدير: نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض ليستدل بها وليكون من الموقنين.

والثالث: أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً لبيان علة الإراءة والتقدير: ليكون من الموقنين [نريه][3] ذلك.

والرابع: أن الإراءة قد تحصل وتصير سبباً لمزيد الضلال كما في حق فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: 56] وقد تصير سبباً لمزيد الهداية واليقين، فلما احتمل هذين الاحتمالين قال في حق إبراهيم ﷺ: أريناه هذه الآيات ليراها فيكون من الموقنين لا من الجاحدين.

المسألة الرابعة: اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل، ولهذا السبب لا يوصف علم الله تعالى باليقين، لأن علمه غير مسبوق بالشبهة وغير مستفاد من التفكر.

واعلم أن الإنسان في أول ما يستدل فإنه لا ينفك عن شبهة وشك من بعض الوجوه؛ فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سبب [حصول][4] اليقين وذلك لوجوه:

الأول: أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثير وتقوية فلا تزال القوة

---

(1) [بدلاً] في الأصل: بدل.
(2) للفضلاء: في الهامش كنسخة ثانية: للعظماء.
(3) [نريه] في الأصل: نوويه.
(4) [حصول] في الأصل: الحصول.

تتزايد حتى تنتهي إلى الجزم.

والثاني: أن كثرة الأفعال سبب لحصول [الملكة][1]، وكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد جار مجرى تكرار الدرس الواحد فكما أن كثرة التكرار يفيد الحفظ المتأكد الذي لا يزول عن القلب فكذا ههنا.

والثالث: أن القلب عند الاستدلال الأول كان مظلماً جداً، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد بالدليل الأول امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة القلب؛ فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة، فإذا حصل الاستدلال الثاني امتزج نوره بالحالة الأولى فيصير الشروق أتم فيه كما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر نورها في أول الأمر، وكما أن نور الشمس لا يزال يتزايد بسبب تزايد قربها من سمت الرأس فإذا وصلت إلى قرب الرأس حصل النور التام، فكذا العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أكثر.

إلا أن الفرق بين شمس المعرفة وبين شمس العالم أن [ارتفاع][2] شمس العالم وتصاعدها [إلى][3] حد معين منقطع، أما شمس المعرفة والتوحيد فلا نهاية لتصاعدها ولا غاية لتزايدها؛ فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 75] إشارة إلى مراتب الدلائل و﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ إشارة إلى درجات أنوار التجلي، وشروق شمس المعرفة والتوحيد.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ [الأنعام: 76] فالفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ﴾.

واعلم أن كثيراً من المفسرين [ذكروا][4] أن ملك ذلك الزمان كان قد رأى رؤيا عبرها المعبرون بأنه سيولد غلام في ذلك العام وينازعه في ملكه، فأمر ذلك الملك بذبح كلّ غلام يولد في ذلك العام فحبلت أم إبراهيم بإبراهيم، وما أظهرت حبلها للناس لأن الملك رسم على كلّ حامل فإذا وضعت غلاماً ذبح وإن كانت جارية

---

(1) [الملكة] في الأصل: الملكوت.
(2) [ارتفاع] في الأصل: الارتفاع.
(3) [إلى] زيادة يقتضيها السياق.
(4) [ذكروا] في الأصل: ذكر.

تركت، فأخفت حملها لذلك فلمّا جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدّت الباب بحجر، فجاء جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام ووضع أصبعه في فمه فمصّه فخرج منه رزقه، وكان يتعهده جبريل ﷺ، وكانت أمه تأتيه أحياناً وترضعه، وكان إبراهيم ﷺ في غيبته يمصّ إبهامه فيخرج منه عسل، ويمص المسبحة فيخرج منها لبن، ويمص الثالثة فيخرج منها ماء.

وكان حينئذ [مستغنياً](1) عن الرضاعة؛ فبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف أن له ربّاً، وسأل الأم إذ جاءت إليه فقال لها: من ربّي؟ فقالت: أنا، فقال: ومن ربّك؟ قالت: أبوك، فقال: ومن ربّ أبي؟ فقالت: ملك البلد؛ فعرف إبراهيم ﷺ جهلها بربّها، فنظر من باب ذلك الغار ليرى شيئاً يستدل به على الربّ فرأى النجم الذي كان أضوأ النجوم في السماء فقال: هذا ربيّ إلى آخر القصّة.

ثم القائلون بهذا القول اختلفوا: فمنهم من قال: كان هذا قبل البلوغ وجريان العلم عليه، ومنهم من قال: إن هذا كان بعد البلوغ.

واتفق أكثر المحققين على فساد قول من قال: أنه كان بعد البلوغ واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أن القول بربوبيّة النجم كفر بالإجماع، والكفر غير جائز على الأنبياء ﷺ بالإجماع.

الحجة الثانية: أن إبراهيم قد عرف قبل هذه الواقعة ربّه بالدليل، والدليل على ذلك أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 74].

الحجة الثالثة: أنّه تعالى حكى عنه أنّه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالرفق حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾.

وحكى في هذا الموضع: أنه دعاه إلى التوحيد وترك الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش ومن المعلوم أن من دعا غيره إلى الله فإنه يقدم الرفق على العنف

(1) [مستغنياً] في الأصل: مستغن.

التامّ؛ فدلّ على أنّ هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مراراً وأطواراً سرّاً وجهراً.

ولا شك أنه اشتغل بدعوة أبيه بعد الفراغ من فهم نفسه، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن قد عرف الله مدة.

الحجة الرابعة: أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله تعالى ملكوت السمٰوات والأرض، حتى رأى من فوق العرش والكرسي وما تحتهما ومن تحت الثرى، ومن كان منصبه ومنقبته في الدّين كذلك وعناية الله تعالى به إلى هذا الحدّ كيف يليق به أن يقول بربوبية الكواكب؟

الحجة الخامسة: أن دلائل الحدوث ظاهرة في الأفلاك والكواكب من خمسة عشر وجهاً شرحناها في باب كيفية دلالة خلق السمٰوات على الصانع القديم، ومع هذه الوجوه الظاهرة كيف يليق بأقل العقلاء نصاباً من العقل والفهم أن يقول بربوبية الكواكب، فضلاً عن أعقل العقلاء وأعلم العلماء.

الحجة السادسة: أنه قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقوله: ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ عبارة عن المستقبل وهذا يقتضي أنه غير ضال في الحال، والجاهل بالله لا شك أنه ضال.

الحجة السابعة: أنه قال في وصف إبراهيم عليه السلام: أن يكون سليماً عن الكفر، قال الله تعالى في حقه: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 84].

الحجة الثامنة: أنه تعالى مدحه، فقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي: آتيناه رشده من قبل، أي: من قبل زمان الفكرة وكنا به عالمين، أي: بصفوته وطهارته كنا عالمين، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

الحجة التاسعة: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75] أي: ليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ والفاء، تقتضي التعقيب فدلت الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ﴾ على أنّ هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم عليه السلام من الموقنين العارفين بربّه.

الحجة العاشرة: أن هذه الواقعة والقصة بسبب مناظرة إبراهيم ﷺ مع قومه؛ والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ولم يقل: على نفسه فعلم أن هذه [المباحثة][1] إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم ﷺ كان يطلب الدّين والمعرفة لنفسه.

الحجة الحادية عشرة: أن القوم يقولون: إن إبراهيم ﷺ إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس حال ما كان في الغار، وهذا باطل، لأنه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 78] مع أنه ما كان في الغار قوم ولا صنم.

الحجة الثانية عشرة: قوله تعالى: وحاجه قومه قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ وكيف يحاجونه وهم بعدُ ما رأوه وهو ما رآهم؟ وهذا يدلّ على أنه ﷺ إنما اشتغل بالنظر في النجم والقمر والشمس بعد أن حاجّه قومه ورآهم يعبدون الأصنام فدعوه إلى عبادتها، فذكر قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ ردّاً عليهم وتنبيهاً لهم على فساد قولهم.

الحجة الثالثة عشرة: أنّه تعالى حكى عنه أنّه قال للقوم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ وهذا يدلّ على أنّ القوم خوّفوه بالأصنام كما حكى عن قوم هود قولهم لنبيهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: 54] ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق بالغار قبل مخالطة القوم.

الحجة الرابعة عشرة: أن تلك الليلة كانت مسبوقة بالنهار، ولا شك أن الشمس كانت طالعة ثم غربت؛ فكان ينبغي أن يستدل بغروبها على أنها لا تصلح للإلٰهية، وإذا بطلت صلاحية الشمس للإلٰهية بطل ذلك في القمر والنجم بطريق الأولى.

هذا إذا قلنا: بأن هذه الواقعة كان المقصود منها تحصيل المعرفة لنفسه، أما إذا قلنا: إن المقصود إلزام القوم الحجة وانمحاقهم فهذا السؤال غير وارد، لأنه إنمّا اتفق مكالمته مع القوم حال طلوع ذلك النجم ثم امتدت المناظرة إلى أن طلع القمر وطلعت الشمس، وعلى هذا التقدير فالسؤال غير وارد؛ فثبت بهذه الدلائل الظاهرة أنه لا يجوز

(1) [المباحثة] في الأصل: المباحث.

أن يقال: إن إبراهيم ﷺ قال على سبيل الجزم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وإذا بطل هذا بقي احتمالان:

الأول: أن يقال: هذا الكلام قاله إبراهيم ﷺ بعد البلوغ ولكن ليس الغرض منه إثبات ربوبية الكوكب بل الغرض منه أحد أمور: الأول: أن إبراهيم ﷺ لم يقل ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على سبيل الإخبار بل الغرض منه أن يناظره عبدة الكواكب، وكان مذهبهم أن الكوكب ربّهم وإلٰههم فذكر إبراهيم ﷺ هذا القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله، كما أنّ الواحد منّا إذا ناظر من يقول بقدم هذا الجسم فيقول: الجسم قديم وإذا كان كذلك فلم نرَهُ ولمْ نشاهده مركباً.

فهو إنّما قال: الجسم قديم إعادة لكلام الخصم حتى يلزم عليه المحال، فكذا هٰهنا قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ حكاية لكلامهم ثم عقّبه بما يدل على فساده وهو قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾.

وهذا الوجه هو المعتمد عليه في الجواب، والدليل عليه: أنه تعالى مدحه في آخر هذه الآية على هذه المناظرة بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ معناه في زعمكم واعتقادكم ونظيره أن يقال للمجسّم على سبيل الاستهزاء: أن إلٰهك جسم محدود أي في زعمه واعتقاده، قال تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [القصص: 74] وكان ﷺ يقول: يا إلٰه الآلهة في زعمهم.

الوجه الثالث: المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلّا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناءً عنه لدلالة قرائن الحال عليه.

الوجه الرابع: في الآية اختصار والتقدير: يقولون: هذا ربّي. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 127] والتقدير ويقولون: ربّنا!

الوجه الخامس: أن يكون ذلك على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوماً: (هذا سيّدكم) على سبيل الاستهزاء.

الوجه السادس: أنّه ﷺ كان يبطل قولهم بربوبيّة الكواكب، إلّا أنه ﷺ كان قد

عرف من تقليدهم لأسلافهم ونفور طباعهم عن قبول الدلائل، أنّه لو صرّح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا منه ولم يلتفتوا إليه، فلّما عرف ذلك منهم مال إلى طريق استدراجهم باستماع الحجة بواسطة الفلك صادراً في الحقيقة عن الله عزّ وجلّ، بخلاف الواحد منا فإنه لا تأثير له في الفلك، فلم يكن الإحياء والإماتة الصادران بواسطة الفلك صادرين من البشر.

فإن قيل: هذا السؤال والجواب اللذين ذكرتم كيف يفهم من الآية.

قلنا: بإظهار ضرب من المساعدة لهم في الظاهر مع طمأنينة قلبه بالإيمان حتى يتمكن بعد ذلك من إبطال ما ذكروا. وإنّما استحلّ ذكر هذه الكلمة لأنه لم يكن له طريق إلى الدعوة غيره فكان ذلك بمنزلة المكره على كلمة الكفر؛ فإن عند الإكراه يجوز إجراء كلمة الكفر على اللسان؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106]، فإذا جاز ذكر كلمة الكفر على سبيل المصلحة لبقاء شخص واحد فلأن يجوز إظهار كلمة الكفر لتخليص عالم من الناس عن الكفر والعقوبة الأبدية أولى.

وأيضاً المكره على ترك الصلاة لو صلّى حتى قتل استحق الأجر العظيم ثم إذا جاء وقت القتال مع الكفار وعلم أنه لو اشتغل بالصلاة انهزم عسكر الإسلام فههنا يجب عليه ترك الصلاة والاشتغال بالقتال، حتى لو صلّى وترك القتال أثم، ولو ترك الصلاة وقاتل استحق الأجر بل نقول: أن من كان في الصلاة فرأى طفلاً أو أعمى أشرف على غرق أو حرق وجب عليه قطع الصلاة، لاتقاء ذلك الأعمى وكذلك الطفل عن البلاء، وكذلك هاهنا، وإن إبراهيم عليه السلام تكلّم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة القوم حتى إذا ورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتمَّ، وانتفاعهم باستماعه أكمل.

ومما يؤكد هذا الوجه أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق في موضع آخر [وهو][1] قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: 88-90]؛ وذلك لأنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على معرفة الحوادث المستقبلة، فاستدل إبراهيم عليه السلام بالنجوم موافقة لهم ومشياً على قاعدتهم في الظاهر مع أنه كان بريئاً في الباطن، ومقصوده في ذلك أن يفعل بالأصنام ما فعل، فأراد الموافقة

---

(1) [وهو] زيادة يقتضيها السياق.

في الظاهر على التمسك بعلم النّجوم لغرض كسر الأصنام فلم لا يجوز إظهار كلمة الكفر باللسان لغرض إبطاله بالدليل القاطع؟

وأيضاً فإن المتكلمين قالوا: لا يقبح من الله تعالى إظهار خوارق العادات على يدّ من يدعي الإلٰهية، لأن صورة هذا المدعي وشكله مكذّب بدعواه، فلا يحصل التلبيس بسبب ظهور تلك الخوارق على يده، لكن لا يجوز إظهارها على يد من يدعي النبوة لأنه يفضي إلى التلبيس فكذا هٰهنا.

وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76] كلام لا يفضي إلى الإضلال، لأن دلائل فساده جلية وفي إظهار هذه الكلمة منفعة.

الوجه السابع: في الجواب أن القوم لما دعوه إلى عبادة النجوم، وكانوا في تلك المناظرة إذا طلع النجم الدريّ قال؈: «هذا ربي» أي هذا هو الربّ الذي تدعونني إليه، ثم سكت زماناً حتى أفل فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.

أما الاحتمال الثاني وهو أن يقال: إبراهيم ؈ إنما قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قبل البلوغ وهو في الغار، فبتقدير أن الله تعالى قد خصّ إبراهيم ؈ بالعقل الكامل والقريحة الوقادة في الإيمان خطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه، ففكر فرأى النجم فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فلّما شاهد كلية حركته قال: لا يجوز أن يكون ربًا وكذا القمر والشمس.

ثم بلغه الله تعالى في إثبات هذا الفكر والاستدلال حدّ التكليف، فقال في الحال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ فهذا احتمال لا بأس به، وإن كان الاحتمال [الأول][1] أولى بالقبول لما ذكرنا من الدلائل الكثيرة على أن هذه المناظرة إنما جرت لإبراهيم ؈ وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد.

أما قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ؈: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] ففيه سؤالات:

السؤال الأول: كيف يدلّ الأفول على أنه لا يصلح للربوبية وأقصى ما في الباب أن

(1) [الأول] زيادة يقتضيها السياق.

يقال: الأفول عبارة عن الحركة، وكل ما يصحّ عليه الحركة فإنه لا بدّ أن يكون متحركاً أو ساكناً، وكلّ ما كان متحركاً أو ساكناً فهو محدث، إلا أنا نقول: كونه محدثاً لا يمنع من كونه رباً لإبراهيم ﷺ، وكذلك أن القوم ما كانوا ينكرون وجود الله تعالى بل كانوا يقولون: أنه تعالى خلق الشمس والقمر والنجوم ثم أنه تعالى فوض تدبير هذا العالم إليها فالبشر عبيد الكواكب [ومخلوق][1] لها ،والكواكب مخلوقة ومحدثة للإلٰه الأكبر فإذا كان كذلك لم يلزم من أفول الكواكب صحة قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ ولا يصحّ أيضاً لأجل أفول الكواكب صحة قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ولا أيضاً صحة قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

والجواب من وجوه:

الأول: أن أفول هذه الأجسام يدل على حدوثها وحدوثها يدل على أنها مخلوقة لموجود قديم أزليّ، ويجب أن تكون قادرية ذلك القادر أزلية وإلاّ لافتقر حدوث قادريته إلى قادر آخر ولزم التسلسل، وإذا كانت قادريّته أزلية، وجب أن تكون متعلقة بجميع الممكنات وإذا كان كذلك امتنع وقوع شيء من الممكنات إلا بقدرته إذ لو وقع شيء من الممكنات لا بقدرته بل بقدرة غيره لكان ذلك الغير سبباً لتعجيزه عن إيجاده للشيء الذي كان مقدوراً له وذلك محال لأنه أقدر من غيره، والأضعف لا يمكنه تعجيز الأقدر.

وإذا ثبت أن حدوث الأجسام يدل بهذه الوسائط على أن جميع المحدثات توجد بقدرته، كان المحدث والموجد للناس والحيوان والنبات والمعادن هو الإلٰه القديم المختار جلّ جلاله، فحينئذ تكون الكواكب معزولة عن ربوبية البشر، وثبت عند ذلك أن أفول الكواكب يدل دلالة قاطعة على صحة قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ وعلى صحة قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 78-79].

واعلم أن هذا الوجه لا يتمشى إلاّ على مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة خلق الأعمال.

---

(1) [ومخلوق] في الأصل: ومخلوقة.

الوجه الثاني في الجواب: أن أفول الكواكب يدل على حدوثه، وحدوثه يدل على افتقاره في وجوده إلى القادر المختار، ومن كان قادراً على خلق البشر بدون شيء من الوسائط أولى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57] وبقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: 81].

وثبت بهذا الطريق كونه قادراً على خلق البشر وكونه قادراً على تدبير هذا العالم السفليّ بدون واسطة الأجرام الفلكية.

أما كون الأفلاك والأنجم قادرة على الخلق والإيجاد عالمة بمصالح أهل هذا العالم ومفاسد [هم][1] فذاك غير معلوم لأنّ كلّ شيء يسنده المنجم إلى الكوكب والفلك فالعقل لا يستبعد إسناده إلى إله الفلك.

وإذا كان كذلك فحكم العقل طرح المجهول والأخذ بالمعلوم، فيستند العقل تدبير هذا العالم السفلي إلى إله الفلك والأنجم فلهذا قال إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الوجه الثالث: في الجواب أن الأفول كما دلّ على حدوث الأفلاك والأنجم دلّ على افتقارها إلى إلٰهه القديم القدير الخبير، الذي يكون علمه في غاية الكمال وحكمته في نهاية الجلال.

وإذا كان كذلك كان الاشتغال بخدمته وطاعته أولى من الاشتغال بخدمة الأفلاك والأنجم.

وبتقدير أن يكون مدبر هذا العالم السفلي هو الإلٰه الأكبر كان الاشتغال بطاعته واجباً وبتقدير أن يكون [مدبر][2] هذا العالم هو الأفلاك والأنجم كان الاشتغال بطاعة الإله الأعظم إعراضاً عن الضعيف وتمسكاً بالقويّ، وهذا أحسن في العقول الزاكية، أمّا لو كان مدبر هذا العالم هو الإلٰه الأكبر كان الاشتغال بطاعة الأفلاك والأنجم إعراضاً عن القويّ وتمسكها بالضعيف، وهذا قبيح في العقول؛ فعلمنا أنّ على جميع [التقادير][3] صحّ قول إبراهيم صلوات الرحمٰن عليه وسلامه: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾

(1) [هم]في الاصل : ها.
(2) [مدبر] زيادة يقتضيها السياق.
(3) [التقادير] في الأصل: التقدير.

وصحّ أيضاً قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

السؤال الثاني: الأفول إنما يدل على الحدوث من حيث أنه حركة على هذا التقدير فيكون الطلوع أيضاً دليلاً على الحدوث فلمَ ترك إبراهيم الاستدلال على حدوثها بالطلوع وعوّل في ذلك على الأفول؟

والجواب: لا شك أن الطلوع والغروب يشتركان في الدلالة على الحدوث إلاّ أن الدليل الذي يتمسك به الأنبياء عليهم السلام في معرض الدعوة لا بدّ أن يكون ظاهراً جليًا بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبيّ والفطن والبليد، ودلالة حركة الطلوع وإن كانت دلالة يقينيّة على الحدوث إلاّ أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأذكياء من الخلق.

أما دلالة الأفول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كلُّ أحد؛ فإن الآفل يزول سلطانه وقت الأفول، فكانت دلالة الأفول على هذا المقصود أتمّ.

وأيضاً قال بعض المحققين: الهويّ في حضرة الإمكان أفول، وأحسن الكلام ما تحصل فيه حصة الخواص وحصة الأوساط وحصة العوام، فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان، وكلُّ ممكن محتاج والمحتاج لا يكون مقطعاً للحاجة؛ فلا بد من الانتهاء إلى ما يكون منزهاً عن الإمكان حتى يقطع الحاجات بسبب وجوده على ما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢﴾.

وأما الأوساط فإنهم يفهمون من الأفول الحركة فكلُّ متحرك محدث وكلّ محدث فهو محتاج إلى القديم القادر فلا يكون المحتاج إلٰهاً بل الإلٰه هو الذي احتاج إليه ذلك الآفل.

وأما العوام فإنهم يفهمون من الأفول الغروب، وهم يشاهدون أنّ كل كوكب يقرب من الأفول والغروب فإنه يزول نوره ويبطل ضوؤه وسلطانه ويكون كالمعزول ومن كان كذلك لم يصلح للإلٰهية؛ فهذه الكلمة الواحدة أعني قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] كلمة مشتملة على نصيب المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فكانت أكمل الدلائل وأفضل البراهين.

السؤال الثالث: لا شك أن تلك الليلة [مسبوقة][1] بنهار وكانت الشمس أفلت في ذلك النهار السابق بعد أن كانت طالعة، وإذا كان الأفول دليلاً على أنه لا يصلح

---

(1) [مسبوقة] في الأصل: مسبوق.

للإلٰهية فلِمَ لم يتمسك إبراهيم ﷺ بأفول الشمس في النهار السابق على تلك الليلة على أنها لا تصلح للإلٰهية؟

ثم إذا خرجت الشمس عن صلاحيّة الإلٰهية مع كبرها وجلال ضوئها فبأن يخرج القمر والنجم عن صلاحية الإلٰهية كان أولى.

لا يقال: أنه ﷺ إنما تربى في ذلك الكهف، وهو أوّل ما نظر من ذلك الكهف إلى الخارج، فكان دليلاً له فرأى الكواكب في تلك الساعة ثم بعده رأى القمر ثم بعده رأى الشمس.

لأنا نقول: أنه من البعيد أن يترقى الشخص العاقل في غار من أوّل طفوليته إلى زمن بلوغه حدَّ كمالِ العقل والتكليف، مع أنه ما نظر من ذلك الغار إلى خارج ذلك الغار في تلك المدة الطويلة وكان يفرق بين الليل والنهار، وما كان يدخل نور الشمس في ذلك الغار من التُرب[1] هذا محال في العرف.

والجواب ـ والله أعلم ـ : أن هذا الإشكال لازم على من يقول: أنه عليه أفضل الصلاة والسلام إنما شرع في هذه الواقعة لطلب معرفة الله تعالى لنفسه، أما على قول من يقول أنه ﷺ إنّما استدل بهذه الوجوه حال اشتغاله بالدعوة إلى التوحيد ومنع القوم عن عبادة الكواكب، فالسؤال زائل لأنه من المحتمل أنه اتفق أن كان هو ﷺ جالساً مع قومه ليلة من الليالي ثم أنه زجرهم عن عبادة الكواكب وبيّن لهم أن ذلك ضلال وجهل، فبينما هم في ذلك الكلام إذ وقع بصرهم على كوكب مضيء فوقعهم في تلك المناظرة ثم لمّا أفل ذلك الكوكب طلع القمر وأعاد عليهم ذلك الكلام وبقوا فيه إلى أن طلعت الشمس فأعاد إبراهيم ﷺ ذلك الكلام.

أمّا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 77 ـ 78] فلا إشكال فيه ألبتة إلّا في موضع واحد، وهو أن يقال: الآية مشعرة بأن في الليلة الواحدة طلع الكوكب ثم أفل ثم بعده طلع القمر ثم أفل وهذا غير ممكن في الليلة الواحدة.

---

(1) الترب: بضم فسكون بمعنى التراب، ويريد به شقوق الأرض.

والجواب فيه قولان:

أحدهما: أن [الكوكب][1] كان في الربع الغربيّ من الفلك فسما بوجهه إلى الأفول وهذه الأحوال يمكن[2] حصولها في الليلة الواحدة.

القول الثاني في الجواب: أن طلوع الكوكب وأفوله كان في ليلة، وطلوع القمر وأفوله كان في ليلة أخرى.

واعلم أن القوم كانوا على مذهب المفوضة، ومعنى هذا المذهب أنهم كانوا يقولون: البشر عبيد الكواكب والكواكب عبيد الله سبحانه، والدليل عليه: أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ وكونهم مشركين يدلّ على أنهم كانوا مقرّين بإثبات الإله، وإنما كانوا مشركين لأنهم أثبتوا للشمس والقمر والنجوم نصيباً من [المعبودية][3] وتدبير العالم، فلمّا أبطل إبراهيم عليه السلام هذا المذهب تبرّأ منه ثمّ أقبل على التوحيد المحض فقال: ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وكأنَّ قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ عبارة عن كلمة: لا إله، وقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ عبارة عن كلمة: إلّا الله، فصار معنى كلمة: لا إله إلاّ الله مكشوفاً في هذا المقام، وهذا آخر الكلام في هذه الآية.

(1) [الكوكب] في الأصل: الكواكب.
(2) يمكن في الأصل: لا يمكن.
(3) [المعبودية] في الأصل: العبودية.

الفصل الثاني:
في شرح مناظرة إبراهيم مع ملك زمانه

وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258] أمّا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فهي كلمة يوقف بها المخاطب على أمر يعجب به.

ولفظه لفظ الاستفهام ونظيره قولهم: ألا ترى إلى فلان كيف يصنع؟ معناه هل رأيت كفلان في صنيعه كذا؟

أما قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ فقال مجاهد: هو نمروذ بن كنعان وهو أوّل من تجبّر وادعى الربوبيّة، والمحاجّة: المغالبة يقال: حاججته فحججته أي غالبته فغلبتُه، والضمير في قوله: ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ يحتمل أن يرجع إلى إبراهيم وإن يرجع إلى الطاغي، والأول هو الأظهر بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 80] والمعنى: وحاجه قومه في الله.

أما قوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ ففيه قولان:

أحدهما: أنّ الهاء في ﴿ءَاتَىٰهُ﴾ عائدة إلى إبراهيم والمعنى: أن الله آتى إبراهيم الملك واحتجوا على هذا القول بوجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 54] أي سلطاناً بالنبوة والقيام بدين الله.

[الحجة][1] الثانية: لا يجوز أن يؤتي الله الملك للكفار ومن يدعي الربوبية لنفسه.

الحجة الثالثة: أن [عودة][2] الضمير إلى أقرب المذكورين واجب، وإبراهيم

(1) زيادة يقتضيها السياق.
(2) [عودة] في الأصل: دعوة.

obeikandi.com

أقرب المذكورين إلى هذا الضمير فوجب أن يكون هذا الضمير عائداً إليه.

القول الثاني: وهو قول جمهور المفسرين أنّ الضمير عائد إلى ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم، واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أن قوله: ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ يحتمل ثلاث تأويلات وكل واحد منها إنما يصح إذا قلنا أن الضمير عائد إلى الملك لا إلى إبراهيم، **فأحد تلك التأويلات**: أن يكون المعنى حاج إبراهيم في ربّه لأجل أن آتاه الله الملك على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتوّ فحاجّ كذلك، ومعلوم أن هذا إنّما يليق بالملك العاتي.

التأويل الثاني: أن يكون المعنى جعل محاجته في ربّه شكراً على أن آتاه الله الملك كما يقال: عاداني فلان لأني أحسنت إليه، يريد أنّه عكس ما يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: 82] وهذا التأويل أيضاً لا يليق إلا بالكافر.

التأويل الثالث: أنّه حاج وقت أن آتاه الله الملك، وهذا غير لائق بالنبي المعصوم فإنه يجب عليه إظهار المحاجة قبل حصول الملك وبعده، أما الملك العاتي فإنه لا يليق به إظهار العتوّ الشديد بعد أن يحصل له الملك العظيم فثبت أنه لا يستقيم لقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ معنى وتأويل إلا إذا حملناه على الملك العاتي.

الحجة الثانية: أن المقصود من هذه الآية بيان كمال حال إبراهيم في إظهار الدعوة إلى الدين الحق، ومتى كان الكافر سلطاناً مهيباً حال ما كان إبراهيم ملكاً كان هذا المعنى أتمّ ما إذا كان إبراهيم ملكاً وما كان الكافر كذلك فوجب [الذهاب][1] إلى ما ذكرنا.

الحجة الثالثة: ما ذكره أبو بكر الأصم وهو أن إبراهيم عليه السلام لو كان ملكاً لما قدر الكافر على أن يقتل أحد الرجلين ويستبقي الآخر بل كان إبراهيم عليه السلام يمنعه أشدّ المنع.

---

(1) [الذهاب] زيادة يقتضيها السياق.

وهذا الاستدلال ضعيف لأن من المحتمل أن يقال: إبراهيم كان ملكاً وسلطاناً في الدين والتمكن من إظهار المعجزات، وذلك الكافر كان قادراً على الظلم فلهذا السبب أمكنه قتل أحد الرجلين.

وأيضاً فيجوز أن يقال: إنما قتل أحد الرّجلين قوداً أو كان الاختيار إليه، واستبقى الآخر إما لأنه لا قتل عليه أو بذل الديّة واستبقاه وأيضاً قوله: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ خبر ووعد ولا دليل في القرآن على أن فعله.

ثم القائلون بهذا القول أجابوا على دلائل القائلين بالقول الأول.

أمّا الحجة الأولى: وهي التمسك بقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾ فجوابها أن هذه الآية دالّة على حصول الملك لآل إبراهيم وليس فيها دلالة على حصول الملك لإبراهيم.

وأمّا الحجة الثانية: وهي قوله: لا يليق بحكمة الله أن يؤتي الكفار الملك، فجوابها أن المراد من الملك التمكين والقدرة والبسطة في الدنيا، والحسّ يدلّ على أنه تعالى قد يعطي للكافر هذا المعنى.

وأيضاً فلم لا يجوز أن يقال أنه تعالى أعطاه الملك حال ما كان مؤمناً ثم إن بعد ذلك كفر.

وأمّا الحجة الثالثة: وهي قولهم عود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب فجوابها أن هذا معارض بما أنّ الروايات الكثيرة وردت بأنّ الملك هو الذي حاجّ إبراهيم، والله أعلم.

أما قوله: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الظاهر أن هذا الكلام جواب عن سؤال سابق غير مذكور؛ وذلك لأن من المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام إنّما بعثوا للدعوة، والظاهر أنه إذا ادعى الرسالة فإن المدعو يطالبه أولاً بإثبات أن للعالم إلٰهاً، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما قال: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: 46] قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فاحتج موسى عليه السلام على إثبات الصانع بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فكذا هٰهنا الظاهر أن إبراهيم عليه السلام ادّعى الرسالة فقال نمروذ: من ربّك؟ فقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ

﴿وَيُمِيتُ﴾ وهذه المقدمة جزم لأن الواقعة دلت عليها، ويحتمل أن إبراهيم قد ذهب إليه ودعاه أولاً إلى التوحيد من غير ذكر النبوّة.

المسألة الثانية: اعلم أن دليل إبراهيم ﷺ كان في غاية الصحة، وذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة الله إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين، والإحياء والإماتة كذلك، لأن الخلق عاجزون عنهما والعلم بذلك بعد الاختبار ضروريّ فلا بد من مؤثر آخر غير هؤلاء القادرين الذين نراهم ونشاهدهم حتى يكون مؤثراً في الإحياء والإماتة، وذلك المؤثر إمّا أن يكون موجباً أو مختاراً، والأول باطل لأنه لا يلزم من دوامه وعدم تغيره دوام الأثر، فكان يجب أن لا يتبدل الموت بالحياة ولا بالعكس وذلك محال.

وأيضاً فإنّا نرى في الحيوانات أعضاءً مختلفة الشكل والطبيعة والخاصية، وتأثير الموجب بالذات لا يكون كذلك فعلمنا أنه لا بد في الإحياء والإماتة من [وجود][1] موجد قادر مختار يؤثرنا بالقدرة والاختيار، وذلك هو الله ﷻ، وهذا دليل متقن في غاية القوة، وذكره الله تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون: 12] وسنفرد لتقريره فصلاً مفرداً إن شاء الله.

فإن قيل: أنه تعالى قدم الموت على الحياة في آيات منها قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28] وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]، وقال إبراهيم ﷺ في الثناء على الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: 81] فلم قدم في هذه الآية ذكر الحياة على الموت؟

قلنا: أنه إذا كان المقصود من ذكر الدليل هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل أظهر وأوضح، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة هٰهنا في الذكر، وأمّا تلك الآيات فالمقصود منها تعديد الأحوال الماضية فلا جرم وجب فيها تقديم الموت على الحياة.

أمّا قوله تعالى: ﴿أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ فاعلم أن المشهور في كتب التفسير أن إبراهيم ﷺ لما احتج بهذه الحجة، دعا الكافر شخصين وقتل أحدهما واستبقى الآخر وقال أيضاً: أحيي وأميت.

---

(1) [وجود] في الأصل: مصححاً بالهامش: موجود.

هذا هو المنقول في الكتب وهو عندي في غاية البعد ويدلّ عليه [وجهان][1]:

الحجة الأولى: أن الظاهر من حاله ﷺ أنه شرح حقيقة الإحياء والإماتة على الوجه الملخص؛ فإن إيراد الكلام المجمل المبهم عندما يكون الغرض هو التفهيم والتعليم والزجر عن الباطل والدعوة إلى الحق لا يليق بأقلّ الناس علماً فضلاً عن أعقل العقلاء وأعلم العلماء، ومتى لخّص الإنسان حقيقة الإحياء والإماتة امتنع أن يشتبه على السامع هذا الإحياء والإماتة التي أوردهما الكافر في معرض المعارضة ويبعد في الجمع العظيم، أن يكونوا في [إفحامه][2] بحيث لا يعرفون هذا الفرق.

الحجة الثانية: أن من بلغ في الجهالة والحماقة إلى هذا الحدّ فأي فضيلة تحصل للإنسان بسبب إلزامه وإفحامه لكنه تعالى جعل إفحامه سبباً للفضيلة العظيمة حيث قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾.

واعلم أن القائلين بهذا القول قالوا: إن الكافر لما أفرد هذا السؤال عدل إبراهيم ﷺ من ذكر الدليل إلى دليل آخر فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾، وهذا أيضاً في غاية البعد، **ويدل عليه وجوه:**

الحجة الأولى: أن الانتقال من الدليل الأول إلى الدليل الثاني يوهم العجز والجهل وذلك يقتضي [صيرورته][3] حقيراً في الأعين بحيث لا يلتفت إلى قوله ولا يبالي بكلامه، والأنبياء يجب عليهم أن يصونوا أنفسهم عن هذه الحالة لأن هذه الحالة تخلّ بما هو المقصود من تبليغهم رسالتهم، ويقتضي أن لا يلتفت القوم إليهم وأن لا يقيموا لهم وزناً، فثبت أنه لا يجوز عليهم الانتقال من دليل إلى دليل.

الحجة الثانية: أن هذا السؤال كان في غاية الركاكة والجواب عنه حاصل بأدنى تنبيه؛ فإن كان القوم قد بلغوا في الحماقة والجهالة إلى حيث لا ينتفعون بذكر الفرق بين هاتين الصورتين لم ينتفعوا أيضاً بذكر هذا الدليل الثاني ألبتة، وإن كانوا بحيث يدركون الفرق بين الصورتين كان التنبيه على الفرق أولى من الانتقال إلى الدليل الثاني.

---

(1) [وجهان] في الأصل: وجوه.
(2) [إفحامه] في الأصل: إحابه بدون تنقيط الثاني والثالث.
(3) [صيرورته] في الأصل: صرورته.

الحجة الثالثة: أن السؤال وإن كان في غاية الركاكة إلّا أنه وقع في أسماع الحاضرين فللسكوت عن الحاضرين يقتضي بقاء تلك الشبهة في القلوب وذلك غير جائز: لأن إزالة الشبهة على من يقدر على إزالتها فرض مضيّق فكيف يجوز الإخلال به؟

وليس لأحد أن يقول: أنه ﷺ إنما ترك ذلك[1] الجواب لأنه كان خائفاً من ذلك الملك، **لأنا نقول**: لما لم يمنع الخوف من الملك عن ذكر الدليل الثاني فبأن لا يمنع من ذكر الفرق الذي هو أوضح وأجلى، كان أولى.

الحجة الرابعة: أنه إنّما يحسن الانتقال من دليل إلى دليل آخر لو كان الدليل الثاني أوضح وأقوى، وههنا ليس الأمر كذلك لأن جنس الحياة لا قدرة للخلق عليه، وأمّا جنس تحريك الأجسام فللخلق قدرة عليه، ولا يبعد في الخلق وجود ملك عظيم الجثة أعظم من السمٰوات والأرض، وأنه يحرك السماء والدليل على أن هذا الاحتمال قائم قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17] والعرش أعظم من السمٰوات بكثير فإذا لم يبعد أن يكون الملك حاملاً للعرش فأيّ بعد في أن يكون محركاً للسمٰوات والشمس والقمر؛ فثبت أن الإحياء لا يصلح إلا من الله تعالى، وأمّا تحريك السمٰوات فإنه يصحّ من غير الله، وإذا كان كذلك كانت دلالة الإحياء والإماتة على وجود الله أظهر من دلالة طلوع الشمس على وجود الله تعالى.

إذا ثبت هذا فإنه لا يليق بالنبيّ المعصوم أن يترك التمسك بالدليل القوي ويلزم العجز والانقطاع ويتمسك بعده بدليل ضعيف لا يقبل التمشية، ويكون الداعي له إلى ذلك سؤال فيه ركاكة في غاية السقوط؛ فإن مثل هذا العمل لا يليق بالأنبياء.

الحجة الخامسة: أن دلالة الإحياء والإماتة على وجود الصانع الحكيم أقوى من دلالة طلوع الشمس على وجود الصانع من وجه آخر وذلك لأنا نشاهد في ذات الإنسان وصفاته [كثيراً][2] من التبدلات واختلاف الحالات وتعاقب الصفات، وكل ذلك ظاهر الدلالة على وجود الصانع الجبّار.

وأمّا الشمس فلا يرى في ذاتها ولا في صفاتها ولا في مجاري حركاتها [شيء][3] من التبدلات بل القائلون بأن المؤثر في وجود العالم علة بالإيجاب لا فاعل

(1) ترك ذلك: في الأصل: ترك عن ذلك.
(2) [كثيراً] زيادة يقتضيها السياق.
(3) [شيء] في الأصل: شيئاً.

بالاختيار تعظيم شبهتهم في هذه الصورة بأن يقولوا: نرى أحوال الشمس في الطلوع والغروب باقياً على نهج واحد وطريقة واحدة، وذلك يوهم أنّ حركة الشمس والقمر والكوكب بالطبع لا بتحريك القادر المختار.

فثبت أن دلالة الإحياء والإماتة على وجود القادر المختار أقوى من دلالة طلوع الشمس وغروبها عليه؛ فكان الانتقال من الأول إلى الثاني انتقالاً من الأقوى إلى الأضعف، وهذا لا يليق بأحد من الأذكياء فضلاً عن أكمل العقلاء.

الحجة السادسة: أن نمروذ لما بلغ في الحماقة والوقاحة إلى حيث عارض الإحياء والإماتة بذلك السؤال الركيك، فكيف يؤمن منه عند استدلال إبراهيم ﷺ بطلوع الشمس من المشرق أن يقول: حصل طلوع الشمس من المشرق بفعلي فإن كان لك آلة قادر فقل له حتى يطلعها من المغرب؟

وعند هذا التزم المحققون من المفسرين بأنّه لو أورد هذا السؤال لكان يجب في حكمة الله أن تطلع الشمس من المغرب.

ومعلوم أن إظهار فساد هذا السؤال الركيك أهون من التزام طلوع الشمس من المغرب بكثير.

وأيضاً فعند طلوع الشمس من مغربها يصير الاستدلال بطلوع الشمس من مشرقها ضائعاً أيضاً وحينئذ يصير دليله الثاني ضائعاً كما ضاع دليله الأوّل، ومعلوم أنّ التزام هذه الكلمات لأجل هذا السؤال الركيك غير لائق بالعقلاء.

الحجة السابعة: أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ يدل على أن الكلام متعلق بالكلام الأول، وعلى قول هؤلاء هذا دليل منقطع عن الكلام الأول غير متعلق به والمختار عندي في تفسير هذه الآية أن نقول: إنّ إبراهيم ﷺ لمّا احتج على وجود الصانع تعالى بالإحياء والإماتة قال المنكر:

أتدَّعي الإحياء والإماتة من الله تعالى ابتداءً من غير واسطة الأسباب الأرضية والسماويّة؟ أو تدَّعي حصول الإحياء والإماتة من الله تعالى بواسطة الأسباب الأرضيّة والسماويّة؟

أمّا الأوّل فلا سبيل إليه.

وأمّا الثاني فلا يدل على المقصود لأن الواحد منا يقدر على الإحياء والإماتة بواسطة الأسباب الأرضية والسماوية، فإن الجماع يفضي إلى الولد الحيّ بواسطة الأسباب الأرضيّة والسماوية، وتناول السم قد يفضي إلى الموت.

فلما ذكرتم ردّ هذا السؤال أجابه إبراهيم عليه السلام بأن قال:

هذا الإحياء والإماتة حصلا من الله تعالى بواسطة الاتصالات الفلكية إلّا أنه لا بد لتلك الاتصالات الفلكية والحركات الكوكبية من فاعل ومدبّر؛ فإذا كان المدبر لتلك الحركات الكوكبية والاتصالات الفلكية هو الله تعالى كان الإحياء والإماتة الحاصلان بواسطة تلك الحركات الفلكية أيضاً من الله تعالى.

وأمّا الإحياء والإماتة الصادران عن البشر بواسطة الأسباب الفلكية فليست كذلك، لأنه لا قدرة للبشر على الأسباب الفلكية، فظهر الفرق.

والحاصل: أنّ الإحياء والإماتة وإن حصلا بواسطة الأسباب الفلكية إلّا أن مدبّر الفلك هو الله تعالى، وكان الإحياء والإماتة الصادران عن الله تعالى بواسطة الفلك [صادرين][1] في الحقيقة عن الله تعالى، بخلاف الواحد منا؛ فإنه لا تأثير له في الفلك؛ فلم يكن الإحياء والإماتة الصادران بواسطة الفلك صادرين عن البشر.

فإن قيل: هذا السؤال والجواب [اللذان][2] ذكرتم كيف يفهم من الآية؟ وأي مناسبة بينهما وبين ما هو المذكور في الآية؟

قلنا: أن مدار أمر القرآن على الإيجاز والاختصار لا على الإطناب، فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ محمول على الإحياء والإماتة الحقيقيين المعتادين، وهما في ظاهر الأمر موقوفان على الأسباب الطبيعية السفلية والاتصالات الفلكية العلوية؛ فقول نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ مثلُ هذا الإحياء والإماتة اللذين أشرت إليهما وهي الإحياء والإماتة [الحاصلان][3] بواسطة الأسباب الفلكية فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ أي هب أن هذا الإحياء والإماتة

(1) [صادرين] في الأصل: صادراً.
(2) [اللذان] في الأصل: اللذين.
(3) [الحاصلان] في الأصل: الحاصلين.

إنما يحصل بواسطة الشمس لكن محرك الشمس هو الله تعالى وأمّا أنت فلا قدرة لك على تحريك الشمس بدليل أنّك لا يمكنك تحريكها من المغرب.

فظهر أن المذكور في الآية تنبيه على ما ذكرناه إلا أنّه تعالى إنما ذكره على سبيل الإيجاز والرمز على ما هو عادة القرآن.

واعلم أنه لمّا فسرنا الآية بهذا الوجه زالت تلك المطاعن بأسرها؛ وذلك لأن هذا الكلام لائق بالعقلاء؛ فإنّ كلّ من تمسك بالإحياء والإماتة لا بدّ أن يورد الطبيعيّ والمنجم عليه هذا السؤال، ولا جواب عنه إلا الجواب المذكور في الآية، ولا يكون فيه [انتقال][1] من الدليل الأوّل إلى الدليل الثاني ويكون الكلام الثاني متعلقاً بالكلام الأول، ويبقى للفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ دلالة تعلق في الكلام الثاني بالأوّل، ونظير هذا التقدير قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: 11 ـ 13]، فجعل مقطع الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث بقوله: «يتفكرون» ومقطع الآية الثانية بقوله: «يعقلون» ومقطع الآية الثالثة بقوله: «يذكّرون».

وفي ترتيب هذه المقاطع أسرار عجيبة وذلك أنه تعالى استدلّ في الآية الأولى على وجود الصانع المختار بحدوث الأنواع المختلفة من النبات في الأرض الواحدة والماء الواحد، إلّا أن هذا الدّليل في هذا المقام غير تامّ وذلك لأن لقائل أن يقول: حدوث الأنواع المختلفة من النبات إنما كان لتأثير الكواكب والشمس والقمر والنجوم، ولمّا كان هذا السؤال مما يذكر على هذا الدليل كان هذا الدليل قبل الجواب عن هذا السؤال غير تام. فكان مجال التفكر والتدبّر باقياً؛ فلهذا السبب جعل مقطع هذه الآية بقوله: «يتفكرون» ثم أنه تعالى أجاب عن هذا السؤال من وجهين:

الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

(1) [انتقال] في الأصل: انتقالاً.

وشرح هذا الجواب أن يقال: هب أن حدوث الأنواع المختلفة إنما كان لتأثير الكواكب واختلاف الفصول إلّا أن حركات الكواكب لا بد لها من مدبّر ولا يتسلسل، بل لا بد من الاعتراف بشيء هو مسبب الأسباب ومدبر الكل، فيكون حدوث النبات في الحقيقة واقعاً بتدبير ذلك المدبر والمؤثر الأول.

وعند هذا يتم الاستدلال ولا يبقى للفكر مجال فلا جرم جعل مقطع هذا الآية قوله: «يعقلون» يعني إن كنتم كاملي العقل فاعترفوا بوجود الإله القادر المختار في هذا المقام، فإن الدّليل قد تمّ ولم يبق بعده للفكر والنظر مجال.

وهذا التقرير بعينه هو التقرير المذكور في قصة إبراهيم عليه أفضل السلام، فإن المنكر لمّا أحال الإحياء والإماتة على الأسباب الفلكية من حيث إنه شبّه ذلك بالإحياء الصادر منا فعند هذا قال إبراهيم ﷺ: فلا بدّ لتلك الأسباب الفلكية من مدبر وهو الله ﷻ فلا جرم انقطع ذلك الكافر وسكت حتى قال في صفته: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾ [البقرة: 258].

فالحاصل: إن المراد من قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾ هو المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

الوجه الثاني من الجواب عن ذلك السؤال قوله: «وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه» وتقرير هذا الجواب هو أن الأرض والماء والهواء والشمس والقمر لكل واحد منها طبيعة واحدة ونسبة هذه الأشياء بأسرها إلى كل واحد نسبة الغصن [إلى][1] أجزاء الشجرة الواحدة، بل إلى كلّ واحدة من أجزاء الورقة الواحدة على غاية صغرها ونهاية دقتها واحدة، فكان ينبغي أن يكون الأثر حاصلاً على السويّة فلمّا رأينا في الشجرة الواحدة اختلافات كثيرة في أجزائها، بل شاهدنا في الورقة الواحدة اختلافاً في لون وجهها [علمنا][2] أن هذه الآثار غير مستندة إلى الطبائع والنجوم.

وإنما جعل هذه الآية بقوله: «يذكرون» لأنه قد تقرر في بداية العقول أن الموجب لا بد أن يكون تأثيره بالسوية، ولأجل هذا قالت الفلاسفة: المقتضى لشكل الجسم طبيعته، وتأثير الطبيعة الواحدة لا بد أن يكون متشابهاً فلا جرم قالوا: يجب أن يكون شكل الجسم البسيط هو الكرة.

---

(1) [إلى] في الأصل: في.

(2) [علمنا] في الأصل: فعلمنا.

ثمّ إنا نشاهد الاختلاف العظيم في خلقة النبات والحيوان: أمّا النبات فإنك ترى الأترج قشره حاراً يابساً، وشحمه حاراً رطباً، وحماضه بارداً يابساً، وبذره حاراً يابساً؛ فهذا شيء واحد حصلت فيه الطبائع المختلفة، وترى الرمّان فيه ذلك القشر الغليظ والشحم القابض المعفص ثم ترى الحبَّ فيه ذلك الماء اللطيف العذب وفيه [تلك][1] النواة الغليظة البارد اليابس القابض.

بل تجد الورقة اللطيفة من الورد أحد وجهيها في غاية الصفرة والوجه الآخر في غاية الحمرة، ثم ترى في وسط تلك الورقة اللطيفة عرقاً ممتداً من أصلها إلى طرفها ثم ترى العروق الصغيرة متشعبة من ذلك العرق المتوسط، ثم يتشعب من كل واحد من تلك الشعب شعب أخرى كبقيته أرق من الشعر مرات؛ فإذا شاهدت هذه الاختلافات الكثيرة في التركيب واللون والخاصيّة وكان قد تقرر في عقلك أن الموجب بالذات يكون تأثيره متشابهاً كان بسبب تأثيرات الأنجم والأفلاك؟

فهذا برهان قاطع على أنه لا يمكن استناد الحوادث الأرضيّة إلى الأفلاك والأنجم؛ ولأجل هذا السرّ جعل مقطع هذه الآية قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني أفلا تذكّر ما كان متقرراً في عقلك أن تأثير الموجب بالذات لا يكون مختلفاً مع أنك تشاهد في حسك هذه الاختلافات الكثيرة؟ فتأمل أيها المسكين في هذه الأسرار لتعلم أن القرآن العزيز بحر عميق لا ساحل له، وبالله التوفيق.

واعلم أنا لما شرحنا هذين النوعين من المناظرات لإبراهيم عليه السلام لتعلقهما بالشمس والنجوم والقمر فلنذكر سائر مناظراته في التوحيد وإن لم يكن لها تعلق بالنجوم والشمس والقمر، وبالله التوفيق والإعانة.

---

(1) [تلك] في الأصل: ذلك.

الفصل الثالث:
في شرح مناظرة إبراهيم عليه السلام مع أبيه في التوحيد

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 41، 42].

اعلم أن الغرض من هذه السورة من أولها إلى آخرها بيان التوحيد والنبوّة والمعاد، والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبوداً سوى الله تعالى وهم فريقان:

منهم من أثبت معبوداً غير الله حيًّا عاقلاً فاهماً وهم النصارى، ومنهم من أثبت معبوداً غير الله جماداً وهم عبدة الأوثان.

والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلّا أن ضلال الفريق الثاني أعظم؛ فلمّا بيّن الله تعالى في هذه السورة الضلال المبين في الفريق الأوّل وهم النصارى تكلم بعده في شرح الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [مريم:41] والواو في قوله: «واذكر» عطف على قوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:2] كأنّه لما انتهت قصة زكريا وعيسى عليهما السلام قال: يا محمد قد ذكرت لهم حال زكريا وعيسى فاذكر لهم حال إبراهيم.

وإنّما شَرَع في قصة إبراهيم لوجوه:

الوجه الأول: أن إبراهيم كان أباً للعرب وكانوا مقرّين بعلوّ شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130]، فكأنه تعالى قال للعرب: إن كنتم من المقلدين لآبائكم على ما هو قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: 22]، فمعلوم أن أجلّ آبائكم قدراً وأعظمهم فخراً وشرفًا هو إبراهيم عليه السلام فكونوا مقلدين له في ترك عبادة الأوثان، وإن كنتم من المستدلين فتأملوا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه أفضل السلام لتعرفوا فساد عبادة الأصنام، وبالجملة فاتّبعوا ملّة إبراهيم إمّا تقليداً أو استدلالاً.

الثاني: أن كثيراً من الكفار في زمن الرسول ﷺ كانوا يقولون: كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا؟ فذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام وبيّن أنه ترك دين أبيه آزر وأبطل قوله بالدليل ورجّح متابعة الدليل على متابعة الأب، ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الأب على جانب الدّليل ردّ على الأب الأسنّ الأكبر الذي هو إبراهيم عليه السلام.

الثالث: أن كثيراً من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال على ما قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53]، فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيهاً لهؤلاء الجهال على سقوط هذه الطريقة.

ثم إنه تعالى قال في وصفه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41]، وفي الصدّيق قولان:

أحدهما: أنه مبالغة في كونه صادقاً وهو الذي تكون عادته الصدق لأن هذا البناء ينبىء عن ذلك، يقال: رجل خمير وسكيّر للمولع بهذه الأفعال.

والثاني: أن يكون معناه كثير التصديق بالحقّ حتّى يصير مشهوراً به. والأوّل أولى لأن المصدق بالشيء ربما لا يوصف بكونه صديقاً إلا إذا كان صادقاً في ذلك التصديق فيعود ذلك الأمر إلى الأول.

فإن قيل: الدليل على القول الثاني قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: 19].

قلنا: إنّما سمّاهم صديقين لكونهم صادقين في ذلك التصديق، واعلم أن النبيّ يجب أن يكون صادقاً في كلّ ما أخبر به لأن الله تعالى صدقه ومصدّق الله صادق، وإلا لزم الكذب في خبر الله وهو محال، فيلزم من هذا كون الرسول صادقاً في كل ما يخبر عنه، ولأن الرّسل شهداء الله على الناس على ما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: 41]، والشهيد إنما يقبل قوله إذا لم يكن كاذباً.

فإن قيل: فما قولك في إبراهيم عليه السلام حين كذب ثلاث كذبات وهو قوله: «بل فعله كبيرهم» وقوله: «إني سقيم» وقوله: «هذه أختي».

قلنا: معاذ الله أن يكذب إبراهيم ﷺ، وسنجيب عن هذا الكلام في باب عصمة الأنبياء عليهم السلام.

فثبت أن كل نبيّ يجب أن يكون [صديقاً ولا يجب أن يكون](1)، كلُّ صديق نبيّاً، فلهذا السبب وصفه أولاً بكونه صديقاً ثم بعده وصفه بكونه نبياً، وأما النبيّ فسيجيء في باب النبوات.

قوله: «كان صديقاً» قيل: أنه صادق، وقيل: أنه وجد صديقاً نبيًا أي كان من أول وجوده إلى النهاية موصوفاً بالصدق والديانة وهذا يؤكد ما ذكرنا من أن قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في مقام المناظرة [كان](2) إطالاً لهذا القول عليهم وما كان في معرض الأخبار وأما قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوض عن ياء الإضافة ولا يقال: يا أبتي، لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه، وقد يقال: يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء.

اعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم أنه تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام:

النوع الأوّل: قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42]، وصف الأوثان بصفات ثلاث كل منها قادح في [المعبوديّة](3) وبيانه من وجوه:

الأول: أن العبادة غاية التعظيم فلا يليق إلّا بمن له غاية الإنعام، وهو الذي يكون قادراً على خلق أصول النعم وفروعها كما قررناه في تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28].

الثاني: أن بداهة العقل حاكمة بأنه لا يجوز الاشتغال بشكر من لا نعمة له عليك، وإذا لم يجز الاشتغال بشكره فلأن لا يجوز الاشتغال بطاعته وعبادته كان أولى.

الثالث: أنها إذا لم تسمعْ وتبصرْ لا تميّزْ من يطيعها ممن يعصيها فأيّ فائدة في عبادتها، وهذا يدل على أن الإله يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات من الكليات والجزئيات حتى يكون العبد آمناً من وقوع الغلط في الثواب والعقاب.

(1) [صديقاً ولا يجب أن يكون] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [كان] زيادة يقتضيها السياق.

(3) [المعبودية] في الأصل: العبودية.

الرابع: أن الدعاء مخ العبادة، فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأيّ منفعة في عبادته؟ وإذا لم يبصر تقرّب من يتقرب إليه، فأيّ فائدة تحصل من ذلك التقرب؟

الخامس: أن السامع المبصر الضار النافع أفضل مما هو عار عن تلك الصفات، والإنسان موصوف بهذه الصفات، والصنم عارٍ عنها، فيكون الإنسان أشرف وأفضل من الصنم، وإقدام الأشرف الأعظم على عبودية الأذلّ الأخسّ لا يليق بالعقلاء.

السادس: أنها إذا كانت لا تضرّ ولا تنفع لم يحصل إليها رغبة ولا منها رهبة فأي فائدة في عبادتها؟

السابع: أنها لا تقدر على حفظ أنفسها عن أضعف الحيوانات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 73 ـ 74]، بل لا تقدر على صيانة أنفسها عن الكسر والإذلال، فإن الله تعالى أخبر عن إبراهيم أنه كسرها وجعلها جذاذاً، فإذا كانت لا تحفظ [أنفسها](1) عن الكسر والإذلال فأيّ رجاء للغير فيها؟

الثامن: أنّه تعالى نزّه نفسه عن الشرك في أول سورة النحل فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ **ثم احتج عليها بوجوه:**

أولها: بخلق السمٰوات فقال جلّ وعزّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾ [النحل: 3].

وثانيها: بخلقه للإنسان، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [النحل: 4].

وثالثها: بخلقه الحيوانات، فقال: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾، إلى قوله: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل: 5 ـ 8].

---

(1) [أنفسها] في الأصل: نفسها.

ورابعها: بخلقه النبات، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [النحل: 10].

وخامسها: البحر، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ [النحل: 14].

وسادسها: الأرض والجبال، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ﴾ [النحل: 15].

ثم ختم ذكر هذه الدلائل بإعادة المقصود وهو نفي الشركاء والأنداد فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: 17].

وكل ذلك إشارة إلى أن [المسوّي][1] بين النافع والضار وبين من لا ينفع ولا يضرّ في العبادة فعبادته سفه.

وسابعها: أن إبراهيم ﷺ عاب الأصنام من ثلاثة أوجه:

من حيث أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وكأنه قال: العبادة لا تليق إلّا لربي وإلٰهي الذي يسمع السر والجهر والنجوى؛ بدليل قوله: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، ويبصر بدليل قوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46]، ويقضي الحوائج [ويكشف][2] الضرّ بدليل قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62].

وثامنها: قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وقال في سورة لقمان عقيب هذه الآية: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: 25]، فقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معناه الشكر لله على اعترافهم بذلك، و[أمّا][3] قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فمعناه: أنكم لمّا أقررتم بأن المدبر هو الله فكيف تشتغلون بعبادة غير الله؟ فإن الإقدام على هذا العمل مع الإقرار بذلك القول لا يليق بمن له عقل وفهم ومعرفة.

فإن قال قائل: ألستم قد ذكرتم أن عبدة الأوثان معبودهم هو الكواكب في الحقيقة فكيف تتوجه هذه الدلائل عليهم؟

---

(1) [المسوّى] في الأصل: التسوية.
(2) [ويكشف] في الأصل: وكشف.
(3) [أمّا] زيادة يقتضيها السياق.

فالجواب: أنا بيّنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]: أنّ على كل التقديرات الإعراض عن مدبر الأفلاك والأنجم والاشتغال بعبادة الأفلاك والأنجم أو بعبادة أصنامها وتماثيلها عين الجهل، فإنه لما دلت [الدلائل][1] على افتقار الأفلاك والأنجم إلى الإلٰه الخالق المدبّر وثبت أنّه خالق الأفلاك والأنجم لا بد أن يكون قادراً على خلق الناس، لأن القادر على الأقوى قادر على الأضعف أولى، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، وقال: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يسٓ: 81].

وإذا كان الأمر كذلك كان الاشتغال بخدمة ربّ الأفلاك والأنجم أولى من الاشتغال بخدمة الأفلاك والأنجم، وقد سبق تقرير هذا المعنى على سبيل الاستقصاء.

النوع الثاني: [من][2] كلام إبراهيم عليه السلام مع أبيه قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43]، واعلم أن هذه الآية فيها إشارة إلى أنّ روح النبيّ ﷺ تتميز عن سائر الأرواح بمزيد الكمال والجلال.

وتقريره أن العالم عالمان: عالم المحسوس وعالم المعقول، والمعقول لا يصير معقولاً حتى يثبت له مثال في المحسوس إلاّ لكان متخيّلاً موهوماً، والمحسوس لا يكون محسوساً حتى يثبت له مثال في المعقول إلاّ لكان سراباً معدوماً.

إذا عرفت هذا فنقول: عالم الروحانيات لا يعرف عددهم وأصنافهم وأنواعهم وأجناسهم إلا الله تعالى، ولا بد فيه من مدبّر مطاع نافذ الأمر والقضية في جميع الروحانيات.

وهياكل الروحانيات هي: العرش والكرسي والأفلاك والكواكب، ولا بد أن يكون ذلك المدبر من جنسهم، ولا بد أن يكون كاملاً بالفعل لأنّ الإخراج من القوة إلى الفعل لا يحصل إلاّ بمن كان مبرّأ عن القوة خارجاً إلى الفعل من [كلّ][3] الوجوه.

---

(1) [الدلائل] في الأصل: الدلالة.
(2) زيادة يقتضيها السياق.
(3) [كلّ] زيادة يقتضيها السياق.

وأما العالم الجسماني فيجب أن يكون فيه مدبّر كامل من جميع الوجوه ويكون نافذ القضية في جميع الجسمانيات، ويكون تدبيره إخراج ما بالقوة إلى الفعل في أبناء جنسه، فمدبر العالم الرّوحاني هو الروح الأعظم ومدبّر العالم الجسماني هو الرسول الأعظم، ثم يكون بين الرّوح والرّسول مناسبة علوية وملاقاة عقلية، فيكون الروح الأعظم مصدراً ويكون الرسول الأعظم مظهراً فالروح مبدأ والرسول نهاية وأول الفكر آخر العمل.

وإذا عرفت أنّ الرسول مدبّر الجسمانيات بإخراج ما فيها من الكمالات من القوة إلى الفعل عرفت المراد من قول إبراهيم عليه السلام:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣﴾ [مريم: 43]، وهٰهنا أسرار عظيمة وقد نبهنا على مشرعها.

النوع الثالث: قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤﴾ [مريم: 44]، والمعنى لا تطعه فإنه عاصٍ لله، فنفره بهذا الوصف عن القبول منه لأنه أعظم الخصال المنفرة.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام كان عظيم الدرجة في الإخلاص في طاعة الله تعالى، فلا جرم لم يذكر من خيانات الشيطان إلاّ كونه عاصياً لله ولم يذكر ألبتة كونه عدواً لآدم عليه السلام، كأن النظر في عظم حاله في معصية الله عمّ فكره وأطبق على ذهنه ،وهذا كما أن عيسى عليه السلام أوّل ما تكلّم ذكر ما يدل على تنزيه الله ولم يذكر ما يدل على براءة أمّه، كأنّ اشتغاله بتنزيه الله تعالى شغله عن الالتفات إلى حال الأمّ، وأيضاً إن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعف الرأي ومن كان كذلك لا يلتفت إليه.

فإن قيل: إن هذا القول يتوقف إثباته على أمور:

أحدها: إثبات الصانع.

والثاني: إثبات الشيطان.

والثالث: أنّ الشيطان عاصٍ في الله.

والرابع: أنه لما كان عاصياً لله لم يجز طاعته في شيء من الأشياء.

الخامس: إثبات الاعتقاد الذي كان يعتقده والد إبراهيم مستفاد من طاعة الشيطان.

ومن شأن [الدلائل][1] التي يوردها الإنسان على خصمه كونها مركبة من مقدمات مسلمة معلومة، ولعلّ والد إبراهيم كان منازعاً في كلّ هذه المقدمات فكيف استحسن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام؟

قلنا: الحجة المعوّل عليها في إبطال مذهب أبيه هو الذي ذكره أولاً من قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: 42] فأمّا هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر والتأمل في تلك [الدلائل][2].

النوع الرابع: قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: 45].

وفي قوله: «أخاف» قولان:

قال الفرّاء: معناه: أعلم، والأكثرون على أنّه محمول على الظاهر، وحمل هذا اللفظ على العلم إنما يجب لو كان إبراهيم عالماً بأن أباه سيموت على الكفر، وذلك لم يثبت فوجب إجراؤه على الظاهر [فإنهم قالوا][3]: يجوز في أبيه أن يؤمن فيكون من أهل الثواب ويجوز أن يموت على الكفر فيكون من أهل العقاب، ومن كان كذلك كان خائفاً لا قاطعاً.

واعلم أن من يظن وصول ضرر إلى غيره فإنه [لا][4] يسمى خائفاً إلّا إذا كان بحيث يلزمه من ذلك الضرر تألّم قلبه، كما يقال: أنا خائف على ولدي.

أما قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ فذكروا في الوليّ وجوهاً:

الأول: أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار والولاية سبب للمعية فأطلق اسم السبب على المسبّب مجازاً وإنما لم يجز حمله على [الولاية الحقيقية][5] لقوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾

(1) [الدلائل] في الأصل: الدلالة.
(2) [الدلائل] في الأصل: الدلالة.
(3) [فإنهم قالوا] في الأصل: فإنه قال.
(4) [لا] زيادة يقتضيها السياق.
(5) [الولاية الحقيقية] في الأصل: ولاية الحقيقة.

[الزخرف: 67]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: 25]، وحكى عن الشيطان أنه يقول لهم: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: 22].

الثاني: أن يحمل العذاب على الخذلان، أي: أخاف أن يمسّك خذلان الله فتصير موالياً فيتبرأ الله منك كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119].

الثالث: ولياً، أي: تالياً للشيطان تليه كما يسمى المطر الذي يأتي تالياً وليًا.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالاً من العذاب فما معنى ذلك؟

الجواب: أن رضوان الله جلّ وعزّ أعظم وأشرف من الثواب، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]، فيجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب وأعظم؛ فهذا هو الإشارة في تفسير هذه الكلمات الأربع التي ذكرها إبراهيم لأبيه.

واعلم أنه صلوات الله وسلامه عليه رتب هذا الكلام في غاية الحسن، لأنه نبه على ما يدل على المنع من عبادة الأصنام ثم أمر باتباعه في النّظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبّه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزّاجر عن الاشتغال بما لا ينبغي ثم إنه صلّى الله عليه أورد هذا الكلام الحسن اللطيف مقروناً بالحسن واللّطف، فإن قوله في مقدمة كل كلام: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدة المحبة والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب وختم الكلام بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدل على شدّة تعلق قلبه بمصالحه.

وإنما فعل ذلك لوجوه:

الأول: قضاء حق الأبوّة، كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [البقرة: 83، النساء: 36، الأنعام: 151، الإسراء: 23]، والإرشاد إلى الدين الحقّ من أعظم أنواع الإحسان، فإذا انضاف إليه راعية الأدب والرفق كان ذلك نورًا على نور.

الثاني: أن الهادي إلى الحق لا بد أن يكون رفيقاً لطيفاً، يورد الكلام لا على سبيل العنف لأن الإيراد على سبيل العنف يصير مانعاً عن الاستماع والقبول.

الثالث: ما روى أبو هريرة(1)، قال ﷺ: **«أوحى الله إلى إبراهيم أنك خليلي، حَسّن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار؛ فإنّ كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أنّي أظلّه تحت عرشي وأسكنُهُ حظيرة القدسي وأدنيه من جواري»**.

قوله تعالى: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم: 46].

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لمّا دعا أباه إلى التوحيد وذكر الدليل على فساد عقول عبدة الأوثان، وأردف ذلك الدليل بالوعظ البليغ وأورد كل ذلك مقروناً باللطف والرفق قابله أبوه بجواب غليظ يضادّ ذلك، مقابل حجته بالتقليد فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم:46] فأصر على ادعاء [آلهته](2) جهلاً وتقليداً، وقابل وعظه بالسفاهة حيث لم يهدده بالشتم ولا بالضرب بل بالرّجم وقابل رفقه في قوله: «يا أبت» بالعنف حيث لم يقل: يا بنيّ! بل قال: «يا إبراهيم».

وإنما حكى الله ﷻ ذلك لنبينا محمد ﷺ تسلية له وتعزية، ليخفّف على قلبه ما يجد من المشركين مما يصل إليه من الأذى، فيعلم أن الجهال منذ كانوا، على هذه السيرة المذمومة.

واعلم أن قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ إنّه إن كان المراد منه الاستفهام فهو خذلان لأنه قد عرف [ممّا](3) يكون منه من وعظ وتنبيه ووعيد ووعد أنّه راغب عن ذلك؛ فما فائدة هذا القول؟ وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجر لا يضرّ ولا ينفع؟ إنمّا التعجب كله من الإقدام على عبادتها.

أمّا قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: 46]، **ففي الرّجم قولان**:

الأول: أنه الرجم باللسان، وهو الشتم والذمّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: 4]، أي بالشتم، ومنه الرجيم، أي: المرميّ باللّعن قال مجاهد: الرجم كله في القرآن بمعنى الشتم.

---

(1) انظر: تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر طبعة بيروت جـ(2/ 155) كذلك كشف الخفا للعجلوني، مكتبة دار التراث جـ 1/ 308، 313 والكامل في الضعفاء لابن عدي طبعة دار الفكر، بيروت جـ 6/ 2432.
(2) [آلهته] في الأصل: آلهتها.
(3) [ممّا] في الأصل: ما.

الثاني: أنه الرجم باليد وعلى هذا التفسير فيه وجوه:

الأول: لأرجمّنك بإظهار أمرك للناس يرجموك فيقتلوك.

الثاني: لأرجمّنك بالحجارة لتتباعد عنّي.

والثالث: قال المؤرخ: لأرجمنك: لأقتلنك بلغة قريش.

والرابع: قال أبو مسلم: لأرجمنك المراد الرجم بالحجارة لأنه قد يقال ذلك في معنى الطرد والإبعاد على سبيل الاتساع، والدليل على أنه أراد الطرد قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيًّا﴾.

أمّا قوله: «واهجرني» ففيه بحثان:

البحث الأول: عطف «واهجرني» على معطوف عليه محذوف يدلّ عليه «لأرجمنّك» والتقدير: فاحذرني واهجرني.

البحث الثاني: في قوله: «واهجرني» قولان:

أحدهما: المراد في قوله: «واهجرني» القول.

والثاني: واهجرني بالمفارقة من الدار والبلد، وهو كهجرة الرسول ﷺ والمؤمنين، أي تباعد عنّي حتى لا أراك، وهذا الثاني أقرب إلى الظاهر.

وأما قوله: «مليًا» ففيه قولان:

الأول: مليًا أي مدة بعيدة، من قولهم: «أتى على فلان ملاوة من الدّهر» أي: زمان بعيد.

الثاني: مليًا بالذهاب عنّي قبل أن أحرقك فلا تقدر على أن تذهب، من قوله: «ملي بكذا» إذا كان مطيقاً له قادراً عليه.

ثم إن إبراهيم عليه السلام **لمّا سمع من أبيه هذا الجواب أجابه بأمرين**:

أحدهما: أنه وعده التباعد عنه، وذلك لأن أباه لمّا أمره بالتباعد أظهر الانقياد

وقوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ توديع ومباركة كقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: 55]، [وقوله][1]: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: 63]، وهذا دليل على جواز مباركة المبطل إذا ظهر منه اللجاج، وعلى أنه يحسن مقابلة الإساءة بالإحسان، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده الاستغفار؟ ثم أنه لما ودّعه بقوله: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ضمّ إليه ما دلّ على أنه وإن بَعُدَ منه إلّا أن شفقته عليه باقية وهو قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾.

واحتج من طعن في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية.

وتقريره: أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه، وأبوه كان كافراً، والاستغفار للكافر لا يجوز فثبت بمجموع هذه المقدمات أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز، إنما قلنا: أنه استغفر لأبيه لقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ وقوله أيضاً: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 86].

وأما أن أباه كان كافراً فذلك نصّ القرآن.

وأما الاستغفار للكافر غير جائز فيدل عليه وجهان:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾ [التوبة: 114]، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113].

والثاني: قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: 4]، إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فأمرنا بالتأسي بإبراهيم عليه السلام إلّا في هذا الفعل فدلّ على أنّ هذا الفعل معصيّة.

والجواب عن قوله: أن الاستغفار للكافر غير جائز فالكلام عليه من وجوه:

الأوّل: إن القطع على الله تعالى بعذاب الكافر لا يعرف إلّا من الشرع، ولعلّ إبراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر فلا جرم استغفر لأبيه.

---

(1) [وقوله] في الأصل: وقال.

الثاني: أن الاستغفار قد يجيء بمعنى الاستبطاء قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، والمعنى: سأسائل ربّي أن لا يعجل عقاب كفرك في الدنيا.

الثالث: أنه ﷺ إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار، ولعلّ في شرعه جواز الاستغفار للكافر الذي يرجى منه الإيمان.

والدليل على وقوع الاحتمال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: 113]، فبيّن أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهمّ من أصحاب الجحيم. ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]، فدلت هذه الآية على أنّه إنما وعد أباه بالاستغفار بشرط أن يؤمن فلمّا لم يؤمن فقد انعدم الشرط فلا جرم لم يوجد المشروط.

فإن قيل: إذا كانت القضية كذلك فلم منعنا من التأسي؟

قلنا: الآية تدل على أنه لا يجوز لنا التأسي به في هذا المعنى، لأن المنع من التأسي به في ذلك لا يدل على أن ذلك كان معصية فإن كثيراً من الأشياء هي من خواص رسول الله ﷺ ولا يجوز لنا التأسي به مع أنه كان ذلك مباحاً لرسول الله ﷺ.

الرابع: لعلّ هذا الاستغفار كان من باب ترك الأفضل لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وأما قوله تعالى حكاية عن إبراهيم قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: 47]، أي: لطيفاً رقيقاً يقال: أحفى فلان في المسألة لفلان، إذا لطف به وبالغ في الرفق، والمراد أنه ﷻ لكثرة ألطافه وأنعامه على عبده في الإجابة فإذا استغفرت حصل لك المراد، كأنه تعالى جعل ذلك على [تقدير][1] أنه إن تاب واستغفر غفر له ذلك الذنب.

---

(1) [تقدير] في الأصل: يقين.

الوجه الثاني في الجواب: في قوله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48].

والاعتزال للشيء هو التباعد عنه والمعنى: إني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضاً، وأبعد عنكم وأشتغل بعبادة ربيّ الذي يضرّ وينفع؛ فإنكم بعبادتكم للأصنام سالكون طريق الهلاك، فواجبٌ عليَّ مجانبتكم.

ومعنى قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم:48] أرجو أن لا أكون كذلك وإنما ذكر هذا الكلام على سبيل التواضع كقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: 82].

وقوله: «شقيًا» مع ما فيه من التواضع فيه تعريض لشقاوتهم في دعاء آلهتهم على ما قرره أوّلاً في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:42].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: 49 ـ 50].

واعلم أنّ أحداً لا يخسر على طاعة الله تعالى، فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وبلدهم واختار الهجرة إلى ربّه ما ضرّه ذلك في الدّين ولا في الدّنيا، بل نفعه فعوّضه الله تعالى أولاداً أنبياء، فلا منصب في الدّين أعظم من أن يجعله الله رسولاً إلى خلقه ويوجب عليهم طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من أعظم المنزلة في الآخرة، فصار أن جعله الله وإيّاهم أنبياء صالحين وذلك من أعظم النعم في الدنيا والآخرة.

ثم بيّن تعالى أنّه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي: وهب لهم مع النبوة أشياء أخر أبهم في ذكرها؛ فيدخل فيها المال والجاه والأتباع والنسل الطّاهر والذرية الطيبة.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:50] ولسان الصدق الثناء الحسن وعبّر باللسان عمّا يحصل باللسان، واستجاب الله دعوته في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:84] فصيرّه قدوة حتى ادعى أهل الأديان أنّهم على دينه وملته؛ قال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: 135]، وقال: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]، وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: 123].

قال بعض العلماء: إن الخليل اعتزل عن الخلق كما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48]، فلا جرم بارك الله في أولاده فقال: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: 49]، وتبرّأ من أبيه في الله على ما قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]، لا جرم سماه الله جلّ وعزّ أباً للمؤمنين فقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78]، وتلّ ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[الصافات: 103]، لا جرم فداه الله تعالى كما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: 107].

وسلّم نفسه لله فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]، فجعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]، وأشفق على هذه الأمة فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: 129]، فلا جرم أشركه الله في الصلوات بأنهم يقولون في آخر التشهد: (كما صلّيت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم). وكان وفيّاً في أداء الطاعات كما قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: 37]، فلا جرم جعل الله موطىء قدميه مباركاً فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]، وعادى كل الخلائق في الله فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77]، فلا جرم اتخذه الله خليلاً فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]، [وقد فصلنا القول][1] ليعلم صحة ما ذكرنا أنه لا يخسر أحد في الله تعالى، نسأل الله التوفيق والإعانة ونعوذ به من الخذلان فهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(1) [وقد فصلنا القول] زيادة يقتضيها السياق.

الفصل الرابع:
في شرح مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه بكسر الأصنام

قال تعالى في سورة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: 51].

اعلم أن الله تعالى قبل الشروع في شرح هذه الواقعة مدح إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الرُّشد قولان:

الأول: النبوّة، واحتج من ذهب إلى هذا القول بقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ قالوا: لأنه تعالى إنما يخصّ بالنبوّة من يعلم من حاله أنه يقوم في المستقبل بحقوقها ويحترز عن كلّ ما لا يليق بها، ويجتنب عمّا ينفّر قومه من قبول تكاليفها، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]، ويتأكد أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124].

والقول الثاني: أن الرشد هو الاهتداء لوجوه:

الأول: هو الصّلاح في الدّين والدنيا قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: 6]، وقال تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: 78]، وقال قوم شعيب له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، ومرادهم أنك لأنت السفيه الضالّ ذكره على سبيل الاستهزاء، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 97]، أي: وما شأن فرعون برشيد.

وفيه قول ثالث: وهو أن تدخل النبوة والاهتداء إلى كلّ المصالح تحت اسم الرُّشد، إذ لا يجوز أن يبعث الله نبياً إلّا وقد عرّفه ذاته وصفاته وأفعاله ودلّه أيضاً على مصالح نفسه ومصالح قومه وكلّ ذلك من الرشد.

openkareem.com

واعلم أن لفظ الرُشد قد جاء في القرآن على خمسة أوجه:

الأول: الحق، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

والثاني: الإسلام، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ [الأعراف: 146].

والثالث: الهداية، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]، وقال في سورة الكهف: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: 17]، وقال أيضاً في هذه السورة: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: 66]، وقال في سورة الحجرات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

والرابع: معرفة المصالح في أمور الدّنيا، قال تعالى في سورة النساء: ﴿ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النساء: 6].

الخامس: فعل الصواب على سبيل الإطلاق، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ [الجن: 14]، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: 10]، فالوجوه الثلاثة الأول مختصّة بالدّين، والوجه الرابع مختصّ بالدنيا، والوجه الخامس ما يتعلق بالدين وما يتعلق بالدنيا.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على أن الإيمان يحصل بخلق الله تعالى بهذه الآية؛ لأنّا بينّا أن لفظ الرّشد يتناول الاهتداء إلى كلّ مصالح الدين والدنيا، وأعظم وجوه الاهتداء إلى مصالح الدين هو معرفة الله تعالى، فكانت معرفة الله تعالى أعظم وجوه الرّشد. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، فدلّ على أن إيمان إبراهيم حصل بتخليق الله تعالى وإيجاده.

وأجاب الكعبيّ عن هذه الحجة [بأن](1) مثل هذا الكلام إنما يقال فيمن عرض عليه ما ينفعه فإذا قبله يقال: إنّ فلاناً قد أوتي الرّشد، وهذا كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمّره وردّه، والآخر أخذه ثم ضيّعه، فيقال: فلان أغنى ابنه فيمن ثمّر المال، ولا يقال هذا فيمن ضيّع المال.

(1) [بأن] في الأصل: أن.

والجواب: أنَّ هذا الكلام مشوش ونحن قد بيّنا أن لفظ الرشد يتناول أعظم وجوه الإيمان، والله تعالى نصّ على أنّه آتاه رُشده فكان هذا صريحاً في أن الله آتاه إيمانه وأعطاه معرفته.

أما قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ففيه وجوه:

الأول: قال ابن عباس وابن جرير الطّبري: آتينا إبراهيم نبوّته من قبل موسى.

والثاني: آتينا إبراهيم رشده في صغره قبل بلوغه حين كان في الغار، وهذا قول من حمل الرشد على الاهتداء إلى وجوه المصالح وإلاّ لزمه أن يحكم بنبوته قبل البلوغ.

والثالث: قال ابن عباس في رواية الضحّاك: المراد حين كان في صلب آدم أخذ الله تعالى ميثاق النبيين.

والرابع: وهو كلام خطر ببالي وهو أنه إشارة إلى العناية الأزلية إلى أن السعيد من سعد في بطن أمه، وإلى قوله ﷺ: «**جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1] يعني أنّه جرى القضاء الأزليّ والحكم السرمديّ بجعله من السعداء الأبرار، إلاّ أنّه شيء حدث اليوم، وذلك لأنّ مذهب أهل السنة والجماعة أنّه تعالى قضى سعادته في هذا اليوم فحصلت سعادته في هذا اليوم من نتائج ذلك القضاء الأزليّ، والمعتزلة يقولون: إنّه اشتغل بالإيمان فصيرّ اشتغاله بالإيمان موجباً على الله تعالى أن يقضي له بالسعادة وهذا في غاية البعد؛ لأن العقل يقتضي أن تكون صفة الخالق [مؤثرة][2] في صفة المخلوق، ولا يجوز أن تكون صفة المخلوق وفعله متصرفة في صفة الخالق.

ولهذا قال أبو بكر الواسطي: لا أعبد ربًا ترضيه طاعتي وتغضبه معصيتي. والمراد أنّه لا ينبغي أن يجعل طاعة العبيد [توقع][3] في الطاعة وعصيه يوقع في المعصية حتى يكونُ الخالق متصرفاً في المخلوق لا أن يكون المخلوق متصرفاً في الخالق.

---

(1) انظر: المعجم الكبير للطبراني، طبعة العراق ج(11/ 223) كذلك إتحاف السادة، تصوير بيروت ج(9/ 226) وج (10/ 521).

(2) [مؤثرة] زيادة يقتضيها السياق.

(3) [توقع] زيادة يقتضيها السياق.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ فالمراد منه أنه[1] سبحانه وتعالى عَلِم اختصاص روحه القدسية بأحوال عجيبة وأسرار بديعة، وهي استغراقه في معرفة الله تعالى ومواظبته على طاعة الله تعالى وإقباله على الدعوة إلى الله، وبالجملة فكانت روحه في الأرواح كالشمس الّتي تنير الظلمات وتزيل الضلالات والجهالات.

ونظير هذا الكلام قولك في رجل كبير: أنا عالم بفلان، فإنّ هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه دلّ [مما][2] إذا شرحت [جلاله و][3] كماله.

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ فقال صاحب الكشّاف: [إذ][4] يتعلق بآتينا [أو][5] برشده أو المحذوف ،أي: أذكر من أوقات رشده في هذا الوقت.

أمّا قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فالتمثال اسم للشيء المصنوع مشبّهاً بخلق من خلق الله وأصله من [مثّل][6] الشيء بالشيء إذا شبّهته [بذلك][7]، وذلك [المثل][8] يسمى بالتمثال.

واعلم أن القوم كانوا يتخذون لكلّ كوكب تمثالاً مخصوصاً على ما هو المشهور من مذهب أصحاب الطلسمات، فجعل إبراهيم ﷺ هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة حتى يُبطل عليهم، قال صاحب الكشاف: لم يرد [للعاكفين][9] مفعولاً بل أجرى مجرى ما لا يتعدى، كقوله: فاعلين العكوف لها أو واقعون لها، فإن قيل: لَمَ لَمْ يقل: عليها عاكفون، كقوله: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: 138].

قلنا: لو حصلت التعدية لعدّاه بصلته التي: (على).

---

(1) فالمراد منه أنه: في الأصل: فالمراد منه ما هو المراد منه أنه.
(2) [مما] في الأصل: ما.
(3) [جلاله و] في الأصل: جلال.
(4) [إذ] في الأصل: إذا لم.
(5) [أو] في الأصل: و.
(6) [مثل] في الأصل: تمثل.
(7) [بذلك] في الأصل: وذلك.
(8) [المثل] في الأصل: مصححاً بالهامش: التمثل.
(9) [للعاكفين] في الأصل: العاكفين.

أما قوله: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53]، فاعلم أن القوم لم يذكروا في الجواب إلا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد الإنكار عليهم؛ لأنّهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم لما يعصمهم من الخطأ أن آباءهم سلكوا هذا الطريق.

واعلم أن طريقة الكفار في أكثر الأمر التعويل على طريقة التقليد، نظيره قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: 104]، فردّ الله عليهم قولهم بقوله جل وعزّ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، وقال في سورة يوسف ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: 105، 106]، وقال في سورة لقمان ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: 21]، فردّ الله عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: 21-22]، وقال في سورة الزخرف: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: 22 ـ 25]، وقال في سورة صٓ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: 5]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: 7]، وقال تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: 42].

الفصل الخامس:
في مناظرة أخرى جرت لإبراهيم عليه السلام في تقرير التوحيد

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: 69 - 71].

اعلم أنه تعالى ذكر في أول هذه السورة شدة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه، وهو قوله تعالى حاكياً عنه وزاجراً له عن ذلك: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3] ثمّ إنه ذكر قصة موسى عليه السلام، ثم ذكر في عقيبها قصة إبراهيم عليه السلام، ليعرف محمّد عليه السلام أنّ حزن إبراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة الأصنام، ولكن سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس مَن يستحق العبادة في شيء، كما تقول [للتاجر][1]: ما مالك؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق، ثم تقول: الرقيق جمال لا مال.

ثم إنهم أجابوا إبراهيم بقوله: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: 71]، والعكوف الإقامة على الشيء، وإنما قالوا: نظلُّ، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون اللّيل.

واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا: نعبد أصناماً ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهي قولهم: «فنظلّ لها عاكفين» وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهاراً للابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام منبهاً على فساد مذهبهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: 72، 73]. وهذه هي الحجة التي ذكرها في سورة مريم وشرحناها بالاستقصاء، وعند هذا قال القوم: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 74]، فأجاب إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: 75، 76]، وكلّ هذا قد تقدم تفسيره في الفصل الذي قبل هذا الفصل.

---

(1) [للتاجر] في الأصل: التاجر.

ثم قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77] واعلم أنه تعالى ما ذكر الأعداء إلا بهذه الكلمة الواحدة ثم مدح الحق بألفاظ كثيرة، وفيه تنبيه على أن الاشتغال بعيب الأعداء اشتغال بالأعداء وهو مانع من الله، وكان بقليله أولى، إنما الاشتغال يجب أن يكون بالثناء على الله تعالى وفيه أسئلة:

السؤال الأول: كيف يكون الصنم عدوّاً وهو جمادٌ؟

الجواب من وجوه:

الأوّل: قال تعالى في سورة مريم عليها السلام في صفة الأصنام: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم: 82]، قيل في تفسيره: إن الله تعالى يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم، وعلى هذا الوجه ستصير هذه الأوثان أعداء لهؤلاء الكفار في الآخرة، فأطلق إبراهيم عليه السلام لفظ [العدو][1] عليهم على هذا التأويل.

الوجه الثاني في الجواب: أنّ الكفار لما عبدوها وعظموها ورجعوا إليها في طلب المنافع ودفع المضار فنزلت منزلة الأحياء العقلاء في اعتقادهم، ثم إنها صارت أسباباً لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة، فلمّا جرت هذه الأصنام مجرى الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرّة لا جرم جرت مجرى الأعداء.

الوجه الثالث: في الجواب أن المراد من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ العابدون دون الأصنام التي هي المعبودة.

السؤال الثاني: لِمَ قال: «فإنّهم عدوّ لي»؟ ولم يقل: فإنّها عدوّ لكم؟

فالجواب: أنّه عليه السلام صوّر المسألة في نفسه على معنى: أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ فاجتنبتها، وأراهم أنّها نصيحة نصح بها نفسه، وإذا تفكروا قالوا: ما نصحنا إلاّ بما نصح نفسه فيكون ذلك أدعى للقبول.

السؤال الثالث: لم لم يقل: «فإنّهم أعداء لي»؟

الجواب: إن لفظ الصديق والعدوّ يقع على الواحد والجماعة قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: 50].

---

(1) [العدو] في الأصل: العداوة.

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء: 78].

واعلم أنه تعالى لمّا حكى عنه أنه استثنى رب العالمين حكى عنه ما وصفه به بما يستحق العبادة لأجله، وهي أربعة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

اعلم أنه تعالى أثنى على ذاته بهذين الوصفين فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1].

واعلم أنّا نفرض مثالاً واحداً ونحقق فيه معنى الخلق والهداية فنقول: الإنسان مخلوق من قالب هو من عالم الخلق، وقلب هو من عالم الأمر، وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقدم على إيجاد الروح الذي هو من عالم الأمر، على ما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحجر: 29].

والتسوية إشارة إلى تركيب المزاج وتعديل الأمشاج، ونفخ الرّوح إشارة إلى اللطيفة الربانية النورانية، وتمام هذا التقدير سيجيء في تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12]، وبالجملة فالخلق إشارة إلى تعديل البدن، والهداية إشارة إلى إبداع القوى المدركة و[المحركة][1] فيه، فثبت أن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ كلمة حاوية لجميع المنافع في الدين والدنيا، ثم فيه دقيقة وهو أنه قال: «الذي خلقني» فذكره بلفظ الماضي، وقال: «فهو يهدين» ذكره بلفظ المستقبل، والسبب فيه أن خلق الذات لا يتجدّد ساعة وساعة بل لمّا حصل بقي إلى [الأمد][2] المعلوم ،وأما الهداية فهي أمر يتكرّر كل حين وأوان سواء كانت الهداية في الدّين أو الدّنيا؛ فبيّن تعالى أنّه هو الذي خلقه في الماضي والمستقبل وأنه هو الذي يهديه في المستقبل في كلّ حين وأوان إلى وجوه المصالح بضروب الهدايات.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: 79]. وقد دخل فيه كلّ ما يتصل بمنافع الرّزق، وذلك لأن الله تعالى إذا خلق الطعام وملّكه منه فلو لم يتمكن معه ما يتمكن من أكله والاغتذاء نحو الشّهوة والقوّة والتمييز لم تكمل هذه

---

(1) [المحركة] في الأصل: الحركة.
(2) [الأمد] في الأصل: الأبد.

المعرفة وذكر الطعام والشراب ونبّه على ما عداهما.

وقال بعضهم: يطعمني طعام المعرفة ويسقيني شراب المحبة، وقيل: يطعمني طعام المناجاة ويسقيني شراب الوصول إلى الدرجات، وهٰهنا بحث: وهو أنه روى الإمام محمد بن علي الترمذي رحمه الله في كتاب نوادر الأصول عن عقبة بن عامر: أنه ﷺ قال: **«لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فإن الله يطعمهم ويسقيهم»**.

واعلم أن المرض سبب لانقطاع عشق القلب عن البدن لتواتر الألم والأوجاع والأسقام عليه، وكلّما كان ذلك العشق أقلّ كان حب الدّنيا أقل، ومرض القلب ليس إلّا حب الدنيا فعلى هذا لما كان مرض البدن أتمّ كان عود القلب إلى الصّحة أتمّ، وكلّما ازداد القلب طهارة من درن الذنوب وسقم حبّ الدنيا كان شبع القلب بأغذية المعرفة وريّهُ بشراب المحبة أتمّ، ومما يدلّ على ما قلنا أنّ أقلّ الناس أكلاً الأنبياء عليهم السّلام ثم الأولياء، وكلّما كان العبد أكبر حظاً من اليقين كان أقلّ أكلاً. روي عن عامر بن عبد القيس أنه داوم شهراً لا يأكل شيئاً، وقال إبراهيم التيمي: لقد أتى عليّ شهر وما أكلت طعاماً ولا شراباً إلاّ حبة عنب أكرهوني عليها، وما أنا بصائم وأقضي حوائجي؛ وقال ﷺ: [1] **«المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»** فالمؤمن إيمانه يشبعه، فمعنى قوله ﷺ: **«إن الله يطعمهم ويسقيهم»** أنه يطهر قلوبهم من الذنوب فإذا طهّرهم منّ عليهم باليقين فأشبعهم وأرواهم، وإذا قوي القلب وابتهج بمعرفة ربّه وصار فرحانًا بخدمة ربّه وبالمثول في طاعته ومجالسته الملائكة المقربين[2] صار الجسد بحيث لا يحتاج إلى الغذاء، ألا ترى أن الإنسان إذا ناله فرح شديد صار بحيث ينسى الحاجة إلى الطعام. هذا كله كلام الشيخ محمد بن علي، ثم قال رحمه الله: وللقلوب مع الله تعالى بيان لا يعرفه إلاّ أهل القلوب.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال الجنيد: إذا مرضت بوحشة الخلق سقاني بأنس الحق، وقال الشبلي: إذا مرضت من همِّ الاشتياق سقاني بلذّة التّلاق.

---

(1) رواه البخاري في كتاب الأطعمة ج/ 6/ ص: 191.

(2) البشر مهما كانوا أتقياء وعلماء بالله لا يجالسهم الملائكة ولا يتصلون بهم، فإن الملائكة لا يتصلون إلا بالأنبياء والرسل، وهذه من إغواءات الشيطان مرت على الرازي ولم يتنبه لها، ولا غرو فإنه كما قيل: لكل عالم زلة ولكل جواد كبوة.

وفيه سؤال، وهو أنه لِمَ قال: «مرضت» دون «أمرضني»؟

والجواب من وجوه:

الأوّل: أنّ المرض إنمّا يحصل باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي، أمّا الصحة فإنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها، وبقاؤها على اعتدالها إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع، وعودها إلى الصّحة إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتزال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع، فإذاً حدوث المرض إنما كان بسبب طبائع الأخلاط، وحدوث الصّحة إنمّا كان بسبب أن الله تعالى قهرها على الاجتماع والاعتدال.

الثاني: هو أنّ الشفاء من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان، والمرض ليس كذلك، ومن عادة الله تعالى [أنّ][1] كلّ ما كان منفعة ولذة فإنه يضيفه إلى نفسه، وكلّ ما كان ألماً فإنّه لا يضيفه إلى نفسه، وذلك رعاية للأدب؛ ألا ترى أنه قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقال: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: 22]، ولمّا آل الأمر إلى المشقة لم يضفها إلى نفسه فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: 216].

فلمّا كانت عادة الله تعالى جارية برعاية هذه الدقيقة لا جرم أن إبراهيم عليه السلام اعتبر هذا المعنى، فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى.

فإن قلتَ: قد نقضه بقوله: «والذي يميتني ثم يحيين».

فاعلم أن الموت سبب لخلاص الرّوح عن زحمة البدن والاتصال بحضرة الله تعالى ورحمته فكيف يعد ذلك من المكاره؟ ولهذا قال عليه السلام:[2] «**من بشرّني بخروج صفر بشرته بالجنة**»، والسبب في ذلك أنه ﷺ كان عالماً بأنّ وفاته تقع في شهر ربيع الأوّل، فكان شديد الاشتياق إليه، وأما المرض فإنه لا يخلّص الرّوح عن البدن بل يبقى في الزحمة.

---

(1) [أنّ] في الأصل: بأنّ.

(2) انظر: كشف الخفا للعجلوني ج (2/ 327)، وتذكرة الموضوعات. ص: 116، والأسرار المرفوعة لعلي القاري، طبعة دار الكتب العلمية، ص: 333.

الثالث: أن غرض الخليل ﷺ في هذا المقام ـ والله أعلم ـ إظهار لسان الشكر لا إظهار لسان الشكوى، وإضافة المرض إلى الله يكون شكوى، فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ليكون أبلغ في الشكر.

الصفة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ وقد شرحنا [ها][1] في تفسير قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]، وفي تفسير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28].

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ هو إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالنجاة.

واعلم أن إبراهيم ﷺ جمع من هذه الألفاظ جميع نِعم الله تعالى، من أول الخلق إلى آخر [الأمد][2] في الدار الآخرة.

وههنا سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ والطمع عبارة عن الرجاء، وأنه ﷺ كان قاطعاً بذلك؟

والجواب من وجوه:

الأول: إن هذا الكلام لا يستقيم على مذهبنا حيث قلنا: إنه لا يجب لأحد على الله شيء، وأيضاً[3] لعله ﷺ قال هذا الكلام قبل النبوّة.

والثالث: لعل غرضه موافقة كلام الله في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48، 116]، فلما علق الله تعالى ذلك الحكم بالمشيئة وافقه الخليل ﷺ فعلقه بالطمع، وهذا من باب رعاية حسن الأدب.

السؤال الثاني: لِمَ أسند الخطيئة إلى نفسه مع أن الأنبياء منزهون عن [الخطايا][4]؟

---

(1) [ها] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [الأمد] في الأصل: الأبد.
(3) وأيضاً إلخ هذا جواب ثان فلهذا قال بعده: والثالث.
(4) [الخطايا] في الأصل: الخطا.

والجواب ـ والله أعلم ـ لعلّه ذكر هذا الكلام قبل النبوّة أو هو محمول على ترك الأولى.

السؤال الثالث: لم علّق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وهو تعالى إنّما يغفر في الدنيا؟

والجواب ـ والله أعلم ـ: إن أثر الغفران إنّما يظهر يوم الدّين.

السؤال الرابع: ما فائدة "لي" في قوله تعالى: ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾.

والجواب من وجوه:

الأول: أن الجود إفادة ما ينبغي لا لغرض وهذا هو صفة الحق جل جلاله فقط أمّا كلُّ ما سواه فله فيه غرض، فإن الأب إذا عفى عن ولده، والسيد إذا عفى عن عبده فذاك إنما يكون لطلب الثواب أو للخوف من العقاب، أو لطلب المدح والثناء أو لدفع رقة الخسيئة عن القلب، وإذا كان كذلك لم يكن المقصود من العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب النفس إمّا لتحصيل ما ينبغي أو لدفع ما لا ينبغي، أمّا الحقُّ جل جلاله فإنه كامل لذاته فيمتنع أن يحصل له صفة كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان، وإذا كان كذلك لم يكن عفوه إلّا لرعاية جانب المعفو عنه فقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾ يعني هو الذي إذا غفر كان غفرانه لي ولأجلي لا لأجل أمر عائد إليه ألبتة.

الثاني: كأنّه يقول: إلٰهي خلقتني لا لي ولا لأجلي؛ لأنك حين خلقتني ما كنت موجوداً وإذا لم [أكن][1] موجوداً استحال تحصيل شيء لأجلي ،ثمّ مع هذا فأنت قد خلقتني، أما لو عفوت كان ذلك العفو لأجلي فلمّا خلقتني أولاً مع أنّي ما كنت محتاجاً إلى ذلك الخلق [فلأن][2] تغفر لي ولأجلي مع أني في نهاية الاحتياج إلى العفو كان أليق بفضلك ورحمتك.

الثالث: أن إبراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط؛ ولذلك لمّا قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، فهىهنا قال: ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾ أي: أريد أن يغفر خطيئتي بمجرّد أني عبدك

(1) [أكن] في الأصل: يكن.
(2) [فلأن] في الأصل: فلا.

ومحتاج إليك، وخاضع بين يدي رحمتك، لا أن يغفرها لي بواسطة شفاعة شافع.

واعلم أن الأحوال ثلاثة:

إما الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وقد ذكر الخليل عليه السلام نِعَم الله عليه في هذه الأحوال الثلاثة:

أمّا الماضي فهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

وأمّا في الحاضر فهو قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾.

وأمّا في المستقبل فهو إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة:

أمّا في الآخرة فهو قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. فما أحسن هذا الترتيب!!

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: 83].

واعلم أنّ كل ما مضى ثناء على الله تعالى وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا ﴿٨٣﴾﴾ دعاء، وتقديم الثناء على الدعاء واجب بحكم النقل والعقل:

أمّا النقل فكما في هذه، وأيضاً روى النبيّ ﷺ[1] عن ربّ العزّة أنه قال: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي للسائلين»**.

وأمّا العقل فهو أن الداعي إذا قدّم الثناء على الله تعالى استنارت روحه بنور معرفة الله عز وجلّ واتصل قلبه بعالم الإلٰهية، وسرادقات الصمدية، ومقامات الفردانية، وارتفعت الحجب وتلألأت الأنوار الإلٰهية في القلب كالقمر إذا وقع في مقابلة الشمس فيكمل نوره، وإذا كمل نوره قوي تأثيره، وإذا أتبعه بالذكر صارت تلك القوى الحاصلة بسبب الذكر والثناء معيناً على تحصيل المطلوب، ولهذا المعنى وجب تقديم الثناء على الدعاء كما فعله الخليل صلوات الله وسلامه عليه في هذا المقام.

فإن قيل: لِمَ لَم يقتصر إبراهيم عليه السلام على الثناء فإن الدعاء استغنى بطلب الحقية

(1) انظر: سنن الترمذي، طبعة مصطفى البابي الحلبي ت/ 2926، كذلك فتح الباري لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الفكر ج (11/ 147) وإتحاف السادة، تصوير بيروت ج (4/ 375) وج (5/ 7).

وهو مانع من الاستغراق، لاسيّما يروى عنه أنه قال: حسبي من سؤالي عِلمه بحالي.

والجواب: أنه كان في هذا المقام مشغولاً بدعوة الخلق إلى الحقّ، بدليل أنه قال هٰهنا: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا جرم ذكر الدعاء أوّلاً ثم ذكر الثناء ثانياً لأجل تعليم الخلق، أمّا لمّا خلا بنفسه اقتصر على الثناء وهو قوله: حسبي من سؤالي عِلمه بحالي.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله تعالى أنواعاً من المطالب:

المطلوب الأول: قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولقد أجابه الله تعالى ألبتة حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: 130].

واعلم أن النفس الإنسانية لها قوتان: نظرية عاقلة، وقوة عملية فاعلة، فالقوة النظرية عبارة عن القوة التي باعتبارها تقوي انجلانا القدسيّة عن عالم الغيب والشهادة، والقوة العملية عبارة عن القوة الّتي باعتبارها تقوى على تدبير هذا البدن وذلك لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ إشارة إلى سعادة القوة النظرية، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إشارة إلى سعادة القوة العملية، وإنما قدّم السعادة النظرية على سعادة القوة العملية لأن القوة النظرية مقدمة على القوّة العملية بالشرف وبالذات، والدليل عليه الوجوه التي ذكرناها في الفصل الأول من هذا الكتاب في بيان أن علم الأصول أشرف من علم الفروع.

وإنما فسرنا [الحكم بمعرفة الأشياء][1] وذلك لأن الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلا إذا استحضر في ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها إلى بعض بالنفي والإثبات فتلك النسبة هي الحكم، ثم إن كانت تلك النسبة الذهنية مطابقة للنسبة الخارجية كانت النسبة الذهنية ممتنعة التغير وكانت مستحكمة قوّته، فمثل هذا الإدراك يسمى حكمة وحكماً و[هو][2] المراد من قوله عليه السلام: **«أرنا الأشياء كما هي»**.

وأما الصلاح فهو كون القوة العملية متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط، وذلك لأن الإفراط في أحد الجانبين تفريط في الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل إلّا بالاعتدال.

---

(1) [الحكم بمعرفة الأشياء] في الأصل: معرفة الأشياء بالحكم.

(2) [وهو] زيادة يقتضيها السياق.

ولمّا كان الاعتدال سبباً واحداً لا يقبل القسمة ألبتة و[الأذهان][1] البشرية في هذا العالم قاصرة عن إدراك ذلك الحدّ على سبيل الحقيقة لا جرم لا يقدر البشر ألبتة على الخروج من ذلك الحدّ على سبيل الحقيقة، وإن قلّ، إلا أن خروج المقربين عنه يكون في القلّة بحيث لا نحس به، وخروج العصاة عنه يكون متفاحشاً جداً؛ فقد ظهر من هذا احتياج كل أحد أن يستعين بتوفيق الله في تحصيل هذا الصلاح سواء كان نبيًا أو وليًا؛ فظهر بهذا احتياج إبراهيم عليه السلام إلى أن يقول: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

المطلوب الثاني: في هذا الدعاء قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84] .

واعلم أن مراتب السعادات ثلاثة: النفسانية والبدنية والخارجية فالنفسانية قسمان كمال القوة النظرية وهو المراد بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ وكمال القوة العملية وهو المراد بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

وأما البدنية فقسمان: الصحة والجمال.

وأما الخارجية فقسمان: المال والجاه، والمال أشد جسمانية لأنه ملك الأعيان، والجاه أشدّ روحانية لأنه ملك الأرواح.

وإن إبراهيم عليه السلام طلب السعادات النفسانية ولم يلتفت إلى السعادات البدنية بقسميها لعلمه أنها غير باقية، وأما السعادات الخارجية فطلب قسماً واحداً منها وهو الجاه والثناء الحسن وهو المراد بقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ وقد أعطاه الله تعالى ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨﴾ [الصافات: 78].

فإن قيل: فأيّ غرض له في أن يمدح ويثنى عليه؟

فالجواب من وجهين:

الجواب الأول: وهو على لسان الحكمة، وبيانه من وجهين:

الوجه الأوّل: إن الأرواح البشرية قد بينّا أنها مؤثرة في الجملة إلاّ أن بعضها قد يكون ضعيفاً فيعجز عن التأثير فإذا اجتمع منها طائفة قوى مجموعها على ما

(1) [الأذهان] في الأصل: الإمكان.

عجزت عنه الآحاد، وهذا المعنى شاهد في المؤثرات الجسمانية، وإذا ثبت [أنّ][1] هذا الواحد إذا كان بحيث يثني عليه الجمع العظيم ويمدحونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع إليه سبباً لفيضان زيادة كمال عليه من عالم القدس.

الوجه الثاني: إن عوام الخلق ربما كانوا مستعدّين لقبول الأنوار من عالم القدس فإذا اتصلت هذه الأرواح بالأرواح القويّة التي يكون للأنبياء عليهم السّلام، فإذا انجلت هذه الأنوار الإلٰهية في تلك الأرواح القويّة السويّة انعكس أثر من تلك الأنوار إلى هذه الأرواح الضعيفة نوع من السعادة بسبب تلك العلاقة، [ففي الوجه][2] الأوّل من الجواب جعلنا الثناء والمدح [سبباً][3] لحصول مزيد سعادة الممدوح وفي الوجه الثاني جعلنا ذلك الثناء والمدح سبباً لحصول مزيد سعادة [المادح][4].

الثاني من الجواب: وهو كلام أهل الظاهر أن من صار ممدوحاً بين الناس بسبب ما كان[5] من الفضائل، فإنه يصير ذلك المدح داعياً للمادح إلى اكتساب تلك الفضائل.

التأويل الثاني لقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾.

أنه سأل ربّه أن يجعل له من ذريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى وذلك محمد ﷺ؛ فالمُراد من قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ بعثة محمد ﷺ.

والتأويل الثالث: قال بعضهم: المراد اتفاق أهل الأديان على حبّه، ثم إنه أعطاه ذلك لأنّك لا ترى أهل دين إلا وهم يحبّون إبراهيم عليه السلام.

المطلوب الثالث: قوله: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: 85]، اعلم أنه لمّا فرغ من طلب مراتب السعادات في الدنيا طلب بعده سعادة الآخرين، وهي جنة النعيم وشبّهها بما يورث، وسنذكر السبب في أنه تعالى لم سمّى الجنة ميراثاً.

---

(1) [أن] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [ففي الوجه] في الأصل: فالوجه.
(3) [سببًا] في الأصل: سبب.
(4) [المادح] في الأصل: الممدوح.
(5) كان من الفضائل: أي كان ذلك السبب من الفضائل وخبر أن قوله فإنه يصير إلخ.

المطلوب الرابع: قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 86]، والكلام فيه قد تقدم في الفصل الثالث في تفسير قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: 47].

المطلوب الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: 87]، وفيه سؤالان:

السؤال الأول: أنه لمّا قال: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ امتنع الخزي لأنه متى حصلت الجنة فقد زال الخزي فكيف قال بعده: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؟ وأيضاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: 27]، فما كان نصيب الكفار فقط كيف يخاف منه الرسول المعصوم؟

قلنا: كما إن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فكذلك درجات الأبرار دركات المقربين فجزى كلّ أحد على ما يليق به.

السؤال الثاني: قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ضمير عن أيّ شيء؟

الجواب: أنه ضمير العباد لأنه معلوم وإن لم يكن مذكوراً أو ضمير الضالّين.

واعلم أن في الآية وجوهاً من النكت:

الأوّل: قيل: معناه لا تطالبني يوم القيامة بصدق الخلة فلا تقل يا إبراهيم! ادعيت أنك خليل الله فهات صدق الدعوى.

والنكتة أن إبراهيم لما خاف عن هذا المقام أفلا تخاف أيها المذنب أن [يطالب][1] يوم القيامة بحق الإيمان والتوحيد كما قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: 8].

الثاني: أنّ الخليل عليه السلام قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:87] [و][2] لم يظهر جوابه في نص القرآن، ثم إنه تعالى أعطى هذا الأمان لأمة محمد ﷺ فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: 8].

---

(1) [يطالب] في الأصل: يطلب.

(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.

أمّا قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 89]، فاعلم أن الله تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 83-84]، وفي تفسير القلب السليم [وجوه][1]:

الأول: المُراد سلامة القلب من الجهل والأخلاق الذميمة، كما أنّ سلامة البدن عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب ومرضه عبارة عن زوال ضدّ تلك الأمور.

الثاني: السليم اللديغ من خشية الله تعالى.

الثالث: السليم الذي سلِم وسلّم وأسلم وسالم واستسلم، وهذه الأحوال كانت حاصلة لإبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]، وقال الشبلي: القلب السليم كقلب الخليل عليه السلام، كان يشير قلبه من جانب التحت إلى الوفاء، ومن الفوق إلى الرّضا، ومن اليمين إلى العطاء، ومن اليسار اليسر إلى ترك الهوى، ومن القدام إلى اللقاء، ومن الخلف إلى البقاء.

(1) [وجوه] في الأصل: وجوهاً.

openkandl.com

الفصل السادس: في تفسير استدلال نوح عليه السلام

قال ﷻ حكاية عن نوح صلوات الله عليه وسلامه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10]، قال مقاتل: إن قوم نوح عليه السلام لمّا كذّبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح صلوات الله عليه فقال نوح: استغفروا ربكم من الشرك يفتح الله عليكم أبواب النعمة.

واعلم أن الاشتغال بالإيمان وسائر الطاعات سبب لانفتاح أبواب الخيرات ويدلّ عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الكفر سبب لخراب العالم، قال تعالى في صفة كفر النصارى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:90-91]، فلمّا كان الكفر سبباً لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سبباً لعمارة العالم.

الحجة الثانية: الآيات الدالة على هذا المعنى منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، ومنها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: 66]، ومنها: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 - 3]، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: 132].

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية.

obeikandl.com

الحجة الرابعة: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ بيّن [أنهما مخلوقان][1] لأجل العبادة ثم قال: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، فبيّن أن جميع [ما في][2] الأرض مخلوق لكم ثم إنه تعالى قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، فلما وفيت بعهد العبودية وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وفى الله تعالى بعهد الربوبية وهو المُراد بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

الحجة الخامسة: روي أن عمر رضي الله عنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار فقيل له: ما رأيناك استسقيت فقال: استسقيت بمجاريح السماء التي يستنزل بها القطر[3] المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة نوره يكون غزيراً، شبّه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: 11، هود: 52]، يحتمل أن يكون المراد منه: فتح أبواب السماء وأمطار التوفيق والهداية والإرشاد، ويحتمل أن يكون المراد منه إنزال الغيث والمطر على ما هو ظاهر اللفظ [ويدل النقل][4] عليهما جميعاً:

أمّا الأول: روي أن الحسن عليه السلام جاءه رجل وشكى إليه الجرب فقال: استغفر، وشكى آخر من العقر إليه، وآخر من وسع أرضه فأمر الكل بالاستغفار، فقال بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً فأمرت الكلّ بالاستغفار، فتلى هذه الآية.

وأمّا الثاني: فروى عن بكر بن عبد الله: إن أكثر الناس ذنوباً أقلّهم استغفاراً وأكثرهم استغفاراً أقلّهم ذنوباً.

وتحقيقه أن الاستغفار إذا قوى على الدفع بعد الثبوت فلأن يقوى على الدفع والمنع كان أولى.

---

(1) [أنهما مخلوقان] في الأصل: أنه مخلوق.
(2) [مافي] زيادة يقتضيها السياق.
(3) في الهامش كنسخة ثانية: المجدح عود مع الراعي مشقوق الرأس أثلاثاً يجدح أي: يفتل العود فيزيد اللبن.
(4) [ويدل النقل] زيادة يقتضيها السياق.

فإن قيل: لِمَ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ ولَم يقل: إنه الآن [غفار][1].

قلنا: المُراد أنه كان غفاراً لكلّ من استغفره كأنه قال: لا تظنوا أنّ غفاريته إنما حدثت الآن بل هو أبداً [و][2] هكذا كان، وكما أن حرفتكم هي الذنب والمعصية فكذلك حرفته هي الغفارية.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، اعلم أن الخَلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: 13]، فلا جرم أعلمهم الله تعالى أنّ إيمانهم بالله يجمع مع الحظ الوافر في الآخرة الخصبَ[3] والغنى في الدنيا، **والأشياء التي وعدهم من منافع الدنيا خمسة**:

أوّلهما: قوله: «يرسل السماء..» وفي السماء وجوه:

الأول: أن المطر ينزل من السماء إلى السّحاب ومن السحاب إلى الأرض.

الثاني: أن المُراد بالسماء السحاب.

الثالث: أن المُراد بالسماء المطر من قوله: (إذا أنزل السماء بأرض قوم)، والمدرار: كثير الدرّ، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث كقولهم: رجل معطار، وامرأة معطار ومنقال.

والنعمة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 12]، وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكلّ.

والنعمة الثالثة: [البنون][4]، ولا شك أن كثرة الأولاد [الذكور][5] سبب إبقاء الذكر واشتداد الظهر.

والنعمة الرابعة: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾[6].

(1) [غفار] في الأصل: مصمماً بالهامش: غفاراً.
(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.
(3) الخصب: في الأصل: والخصب.
(4) [البنون] في الأصل: البنين.
(5) [الذكور] في الأصل: المذكور.
(6) نفس الآية السابقة.

والنعمة الخامسة: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(1).

فبدأ بذكر هذه النّعم بإنزال الماء من السماء وختمها بإخراج الماء من الأرض، والسبب فيه أنّا قد بيّنا أن تولد النعمة في هذا العالم إنما يكون بنزول الماء من السماء إلى الأرض.

واعلم أنه تعالى لمّا أمرهم بالاستغفار ووعد على الاستغفار بهذه المنافع، أكّد ذلك ورغّب فيه فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: 13]، وفيه وجوه:

الأول: أن يكون التقدير: ما لكم لا تأملون من الله وقاراً وتعظيماً بفعله في حقكم، كأن القوم لما قيل لهم: إنكم متى استغفرتم الله أعطاكم هذه النعم الكثيرة، والقوم قد استبعدوا ذلك فقالوا: وكيف يعطينا هذه النعم العظيمة لمجرد الاستغفار؟ فأجيبوا بقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ أي ما لكم لا ترجون من الله أن يفعل في حقكم هذا التوقير والتعظيم مع أنه فعل في حقكم ما هو أعظم وأجلُّ منه وهو أنه خلقكم أطواراً؟

الوجه الثاني: إن القوم كانوا يبالغون في الاستخفاف بنوح عليه السلام فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به، فقيل لهم: إنكم إذا وقّرتم نوحاً كان ذلك لأجل الله ولأجل أمره وطاعته، فإن كل ما يأتي به الإنسان لأجل الله لا بد أن يرجو منه خيراً.

الوجه الثالث: وهو أن يكون المراد من الوقار الحكم وترك التعريض والمعنى: ما لكم لا تأملون أن يترك الله معاملتكم بالعذاب بحلمه ولطفه ويمهلكم لتؤمنوا به، وقوله تعالى: «لله» لبيان من أثبت له الوقار.

الوجه الرابع: إن الوقار هو الثبات، من وقر: إذا ثبت واستقر، فكأنه قال: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ وعند هذا تم الكلام ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا ترجون لله ثباتاً وبقاءً وإنكم لو رجوتم ثباته وبقاءه لحقتموه ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره، والمراد من قوله: ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ أي: تعتقدون لأن التراجي للشيء يعتقد له.

---

(1) نفس الآية السابقة.

ثم إنه تعالى لما أمر في هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل:

الحجة الأولى: حجة مأخوذة من الأنفس وهي قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: 14]، وفيه وجهان:

الأول: قال الليث: الطور التارة حالاً بعد حال، فإنه كان تراباً أولاً ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة.

والثاني: قال ابن الأنباري: الطور الحال والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضهم بعضًا كما قال: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22].

واعلم أنه خلق البشر بحيث لا يشبه بعضهم بعضاً في الصورة، والحكمة فيه: أنه لو حصلت المشابهة لحصل الاختلاف، فما كان يتميز زوج هذه المرأة عمن لم يكن زوجاً لها، ولا عبد هذا الإنسان عن عبد غيره وحينئذ لم يتميز الحلال عن الحرام والمستحق عن غير المستحق، وذلك يفضي إلى زوال المصالح وحصول المفاسد فلهذا السبب اقتضت الحكمة الإلهية تخصيص كلّ شيء بصورة مخصوصة.

ثم إنه من أعظم الدلائل على القادر المختار لأن الأب والأمّ واحد، وتأثير الطبائع والنجوم والأفلاك واحد، ثم مع هذا التشابه والتساوي يكون كل واحد منهم مختصاً بصورة مخصوصة معينة، فهذا لا يكون إلا بتأثير القادر المختار.

وروي أن أحداً استعظم أمر الشطرنج عند عمر ﷺ وقال: إنها مختصرة ويقع فيه أنواع غير متناهية من اللعب فقال عمر: رقعة الوجه أصغر من رقعة الشطرنج، ولكل عضو من أعضاء الوجه موضع معين منه لا يتغير منه، فإن العين لها موضع واحد وكذلك الأنف والفم، ثم مع هذا يقع فيه من الاختلافات ما لا نهاية له فإنك لا ترى الشيئين في المشرق والمغرب يتماثل صورتاهما من جميع الوجوه، وهذا يدلّ على كمال قدرة الله وعلمه وحكمته.

الحجة الثانية: على التوحيد: حجة مأخوذة من الآفاق وهي قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: 15، 16].

واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه

obeikandl.com

الآية؛ وذلك لما ذكرنا أن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه فلا جرم بدأ بالأقرب لأن الأقرب أعرف، وتارة يبدأ بدلائل الآفاق ثم بدلائل الأنفس، إما لأن دلائل الآفاق أشهر وأعظم، أو لأنها أشرف وأعظم.

واعلم أن لهذا في الحقيقة دلائل ثلاثة:

أوّلها: السمٰوات الطباق وقد تقدم في الباب المتقدم كيفية دلالتها على الصانع المختار.

وثانيها: كون القمر نوراً.

وثالثها: كون الشمس سراجاً والله تعالى وصف الشمس والقمر بأوصاف متعددة:

الصفة الأولى: ذكر كون القمر نوراً والشمس سراجاً في آيات إحداها هذه الآية، وقال في يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: 5]، وقال في الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: 61].

واعلم أن الاستقراء يدل على أن أحوال هذا العالم مختلفة بحسب أنوار الشمس والقمر، فلنبيّن ذلك في الشمس أوّلاً ثم في القمر ثانياً، أمّا تأثيرات أنوار الشمس في هذا العالم فمن وجوه:

الأول: التأثيرات الحاصلة بحسب اليوم والليلة، وذلك لأنّا نرى جميع الحيوانات في الليل كالميتة فإذا طلع نور الصباح ظهرت في أجساد الحيوانات قوة الحياة، وكلّما كان طلوع ذلك النّور أكبر كان ظهور قوة الحياة في أبدان الحيوانات أكمل، ثم لمّا طلع قرص الشمس بالتمام ترى الناس وسائر الحيوانات يبتدؤون بالحركة والقوة والاشتداد، وما دامت الشمس صاعدة إلى وسط سمائهم كانت حركتهم في الزيادة والقوة، فإذا مالت الشمس عن وسط السماء أحدث حركاتهم وقوتهم في الضعف ولا يزال يتزايد ذلك إلى زمن غيبوبة الشمس، وكلّما ازدادت غيبوبة نور الشمس ازداد الضعف والفتور والنقصان في الأبدان الحيوانية وفي [القوى][1] المحركة

(1) [القوى] في الأصل: قوى.

والمدركة ،فرجعت الحيوانات إلى بيوتها وأحجرتِها كالميتة المعدومة [الحياة][1] فإذا طلعت الشمس عليهم في اليوم التالي رجعوا إلى الحالة الأولى من الحياة [والقوة][2] [والحركة].

الوجه الثاني: في تأثيرات الشمس بحسب [الحركة] [3]اليومية وبيانه: أنه لو كانت واقفة في موضع واحد لاشتدت السخونة في ذلك الموضع واشتد البرد في سائر المواضع، لكنها في أول النهار من المشرق فتقع على ما يحاذيها من جانب الغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى إلى طرف المغرب وتشرق حينئذ على الجوانب الشرقية وحينئذ لا يبقى موضع مكسوف في الشرق والغرب إلا ويأخذ حظًا من شعاع الشمس.

الوجه الثالث: في تأثيرات الشمس بحسب الفصول الأربعة وبيانه: أنه لو لم تكن للشمس حركة في الميل لكان تأثيرها مخصوصاً بمدار واحد ولكان سائر المدارات [يخلو][4] عن المنافع الحاصلة منها، ولكان يبقى كل واحد من المدارات الجنوبية والشمالية على كيفية واحدة، فإذا كانت حارة أفنت الرّطوبات وأحالتها كلها إلى النارية ولم تتكون المتولدات فيكون الموضع المحاذي لممرّ الشمس على كيفية الاحتراق، والبعيد عنه جداً على كيفية البرد الشديد والمتوسط بينهما على كيفية متوسطة؛ فيكون في موضع صيف دائم موجب للاحتراق، وفي موضع شتاء دائم موجب للجمود والتحجر، وفي موضع ربيع دائم وخريف دائم ولا يتم النضج، وأمّا إذا حصلت للشمس ميل تارة إلى الشمال وأخرى إلى الجنوب حصل في كل بقعة من بقاع الأرض هذه الفصول الأربعة التي هي معينة على النشوء والنماء وحصول مصالح الحيوانات والنبات.

الوجه الرابع: في تأثير حركة الشمس من حيث إنها تتم الدورة في سنة واحدة، وذلك لأنّا لو قدرنا أن الشمس تتحرك حركة بطيئة لكان هذا الميل قليل النفع ولكان التأثير شديد الإفراط، ولكان يعرض قريباً فيما لم يكن له ميل، ولو كانت حركتها

(1) [الحياة] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [والقوة و] في الأصل: بقوة.
(3) [الحركة] في الأصل: حركة.
(4) [يخلو] في الأصل: يخلوا.

أسرع من هذه لما كملت المنافع وما تمّت، فأما إذا كانت هذه الحركة لا في غاية السرعة ولا في غاية البطء حصلت المنافع المذكورة والمصالح المذكورة.

الوجه الخامس: في تأثيرات الشمس بحسب قربها من سمت الرأس وبعدها عنه.

اعلم أن كل موضع تكون الشمس بعيدة جداً عن سمت رؤوس أهله يشتد البرد فيه، وهو مثل الموضعين اللذين تحت القطبين فإنه لا يتكون هناك حيوان ولا ينبت فيها نبات من شدة البرد، ويكون هناك ستة أشهر نهاراً وستة أشهر ليلاً، ويكون هناك رياح عاصفة وثلوج متوالية، ويدل عليه البحر الأرمني فإنها أقرب إلى مدار الشمس من الموضع المذكور بكثير مع أنه تشتد فيه الرياح العواصف وتشتدّ ظلمته حتى إنه لا يمكن ركوبه لشدة برده وظلمته.

ويستدل عليه أيضاً ببحر السلم فإنه إذا حصلت الشمس في أوائل العقرب إلى أن تحصل في أوائل الحوت، ففي هذه الأشهر الأربعة لا يستطيع الناس ركوب هذا البحر.

الوجه السادس: في تأثيرات الشمس في أحوال الحيوانات بحسب قربها من سمت الرؤوس وبعدها عنه.

اعلم أن الاستقراء يدل على أن السبب الظاهر لاختلاف الناس في أجسامهم وألوانهم وأخلاقهم وطبائعهم وسيرهم، اختلاف أحوال الشمس في الحركة وذلك لأن الناس ثلاثة أقسام:

أحدها: الذين يسكنون خط الاستواء محاذاة ممرّ السرطان وهم يسمون باسم: العام[1] السودان؛ لأن الشمس تمرّ على سمت رؤوسهم في السنة إما مرة أو مرتين فتحرقهم وتسوّد أبدانهم وشعورهم، والذين مساكنهم غاية في الغرب من خط الاستواء فهم الزّنج والحبشة، والشمس لقوة تأثيرها في مساكنهم تحرق شعورهم وتسوّدها فتجعلها جعدة كثيفة، وتجعل وجوههم فحلة، وجثثهم عظيمة، وأخلاقهم وحشيّة.

(1) العام: في الهامش كنسخة ثانية: العوام.

وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذاة ممرّ السرطان فالسواد فيهم أقلّ وطبائعهم أعدل وأخلاقهم آنس وأجسامهم أقصف كأهل الهند واليمن وبعض المغاربة وجميع العرب.

القسم الثاني: الذين مساكنهم على ممرّ رأس السرطان إلى قريب من محاذاة بنات نعش الكبرى، وهم يسمون باسم: العام البيضان فهؤلاء لأنّ الشمس لا تسامت رؤوسهم وأيضاً لا تبعد عن مسامتة رؤوسهم بعداً كثيراً، ما يعرض[1] لهم شدة من الحرّ والبرد، فلا جرم صارت ألوانهم متوسطة ومقادير أجسامهم معتدلة وأخلاقهم حسنة، كأهل الصين والترك وخراسان والعراق وفارس والشام.

ثم هؤلاء كل من كان أميل منهم إلى ناحية الجنوب كان أتمّ في الذكاء والفهم لقربه من منطقة البروج وممر الكواكب المتحيزة، وتكون حركاتهم أليق بحركات الكواكب السيارة في السرعة والخفّة ومن كان منهم يميل إلى ناحية المشرق فهم أقوى أنفساً وأشدّ تذكراً؛ لأنّ المشرق يمين الفلك، لأن الكواكب منه تطلع والأنوار من جانبه تظهر، واليمين لا شك أنه أقوى. ومن كان إلى ناحية المغرب فهم ألين نفساً وأشدّ تأثيراً وأكثر كتماناً للأمور.

القسم الثالث: وهم الذين تكون مساكنهم محاذية لبنات نعش الصغرى وهم الصقالبة والروس، فإنهم لكثرة بعدهم عن ممرّ البروج وحرارة الشمس فصار البرد عليهم أغلب والرطوبة العضلية أكثر لأنه ليس هناك من الحرارة ما يتسعها فلذلك صارت ألوانهم بيضاء وشعورهم سبطة شقرة، وأبدانهم عظيمة رحضة، وطباعهم مائلة إلى الرطوبة.

واعلم أنّ كلّ واحد من هذين الطرفين وهما: الإقليم الأول والسابع يقل فيه العمران وينقطع بعضه عن بعض لغلبة الكيفيتين الفاعلتين، ثم لا يزال يزداد في الأقاليم الثاني والسادس والثالث والخامس ويقلّ الخراب فيها، وأمّا الإقليم الرابع فهو متواصل العمارات قليل الخراب وذلك لفضل الوسط على الأطراف باعتدال المزاج.

الوجه السابع: في تأثيرات الشمس بحسب قربها وبعدها من الأرض.

---

(1) ما: نافية وليست نكرة تامة.

اعلم أن المواضع التي يسامتها حضيض الشمس فهي البراري الجنوبية وهي محترقة نارية لا يتكون فيها حيوان ألبتة. وأما البلاد المقاربة لتلك المواضع فسكانها كلهم سود الألوان على التفصيل الذي ذكرناه، وأما المواضع التي يسامتها أوج الشمس فهي في جانب الشمال وهي غير محترقة بل معتدلة.

واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب [قرب][1] الشمس من الأرض في الحضيض وبعدها عنه في الأوج ليس بكثير بل بقليل، فلا جرم بسبب ذلك التفاوت القليل صار الجنوب محترقاً فعلمنا بهذا أنّ الشمس لو صارت إلى فلك الثوابت لفسدت الطبائع من شدة البرد، ولو أنها انحدرت إلى فلك القمر لاحترق هذا العالم بالكلية، فلهذه الحكمة جعل الباري جلّ ثناؤه الشمس [وسط][2] الكواكب السبعة ليكون بحركتها المعتدلة وقربها المعتدل يبقى الطباع بالمطبوعات في هذا العالم على حد الاعتدال.

وأما أهل الإقليم الأول فلأجل قربهم من حضيض الشمس كانت سخونة هوائهم شديدة فلا جرم هم أكثر سواداً لأن تأثير الشمس فيهم أكبر، وأهل الأقليم الثاني سمر الألوان وأما الإقليم الثالث والرابع فأعدل الأقاليم مزاجاً بسبب اعتدال الهواء.

وأيضاً تغاير ارتفاع الشمس إنما يكون عند كونها في أبعد بعدها عن الأرض فلا جرم صار هذا الإقليم معدناً للأشخاص الفاضلة والصور الجميلة، وأما الإقليم الخامس فسخونة الهواء هناك أقل من الاعتدال بقدر يسير فلا جرم صار في حيّز البرد والثلوج، وصارت طبائع أهلها أقل نضجاً من طبائع أهل الإقليم السادس والسابع فأهلها فحول نبول، ولغلبة البرد والرطوبة عليهم اشتد بياض ألوانهم وزرقة العيون وعظمت وجوههم واستدارت؛ فقد ظهر أن صور الناس وأشكالهم إنما اختلفت بحسب اختلاف أحوال الشمس [فهذه][3] إشارة قليلة إلى كيفية تأثيرات الشمس، أمّا القمر فتأثيراته من وجوه:

الأول: أنا نرى أبدان الحيوانات في وقت زيادة خبوء القمر تكون أقوى وأسخن وبعد الامتلاء تكون أضعف وأبرد ويكون أزيد ويكون الأخلاط التي في بدن

---

(1) [قرب] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [وسط] في الأصل: وسطه.
(3) [فهذه] في الأصل: فهذا.

الإنسان ما دام القمر زائداً في ضوئه فالنار يكون أزيده [ويكون] ظاهر البدن أكثر رطوبة وحساً، فإذا نقص ضوء القمر تناقصت هذه الأحوال.

الثاني: أن التجارب الطبية دلّت على أن أحوال البحرانات مربوطة بأحوال زيادة ضوء القمر ونقصانه.

الثالث: تكثر ألبان الحيوانات في النصف الأوّل من الشهر وتتناقص في النصف الثاني.

الرّابع: أن الإنسان إذا نام في ضوء القمر حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل وتهيّج عليه الزكام والصداع، وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة تحت ضوء القمر تغيّرت طعومها وروائحها، ولأصحاب التجارب اعتبارات كثيرة من هذا الباب، ويكفينا هذا القدر في بيان منفعة كون الشمس ضياءً والقمر نوراً.

فإن قال قائل: ظاهر كلامكم في هذا الفصل مشعر بأن المؤثر في أحوال هذا العالم هو الشمس والقمر، وكلامكم في الأبواب المتقدمة صريح في أنّ المؤثر هو قدرة الله تعالى فكيف الجمع بين القولين؟

فالجواب: أليس أنّا نقول: الخبز مشبع والماء [مروٍ][1]، وإن كنا نعتقد أن خالق الشبع والريّ هو الله تعالى، فكذلك هٰهنا أليس أنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]، ثمّ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، فحصول الموت والوفاة منسوب إلى الله تعالى بالتخليق والإيجاد ومنسوب إلى ملك الموت بالأمر بقبض الأرواح، ومنسوب إلى أتباع ملك الموت لأجل أنّهم يباشرون أعمالاً أجرى الله عادة بخلق الموت عقيبها، فكذا هٰهنا الله تعالى أجرى في عادته بخلق الحوادث المختلفة بحسب قرب الشمس وبعدها فتلك الحوادث منسوبة إلى قدرة الله تعالى بالتخليق والإيجاد ومنسوبة إلى الشمس على سبيل إجراء العادة.

الصفة الثانية: من صفات الشمس والقمر [كونهما مسخرتين][2]، قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: 54]،

---

(1) [مروٍ] في الأصل: مروى.

(2) [كونهما مسخرتين] في الأصل: كونها مسخرة.

إلى قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: 54] وقال في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد: 2]، وقال في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان: 29]، وقال في الزمر: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: 5].

اعلم أن هذا التسخير من وجوه:

الأول: أنها مع غاية فعلها تغيب في جوّ السماء، وذلك لا يكون إلا بتسخير الله وحفظها في حق الله.

الثاني: أنها متحركة بالاستدارة على نهج واحد لا يقع في تلك الحركات اختلاف بالبطء والسرعة بالرجوع والاستقامة ولا بالارتفاع والانخفاض، بل لكل واحد منها مسير ومقدار ونهج مقدر وجهة مقدّرة وذلك لا يكون إلا بتسخير مسخر وتقدير مقدّر سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

واعلم أن العقول قاصرة عن معرفة منافع كل من الكواكب من القرب والبعد والحركة والجهة، ولكنّ العقل لمّا دلّ على بعض المنافع والحكم وجب أن يقاس الباقي عليه فيقطع بأن لله تعالى في كل واحد [منها][1] حكماً مخفية وأسراراً مطوية لا يصل إليها عقول الخلق ولا ينتهي إلى مبادئها أوهام الملائكة المقربين، فضلاً عن إفهام البشر وتكون الغاية القصوى لنا أن نعترف بجلال خالقها وكمال حكمة مدبرها كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

الصفة الثالثة: كون القمر آية الليل وكون الشمس آية النهار، قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]، وقال في سورة يس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

(1) [منها] في الأصل: منهما.

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 38 - 40]، فهذه الآيات دالة على أن سيرها وحركتها لحكم بالغة، وعلى أن هذه الحركات تنتهي بالآخرة إلى الانقطاع والسكون؛ فغاية كلّ متحرك سكون، ونهاية كل متكون أن لا يكون؛ فهذا الذي حكم بأن الشمس والقمر لا يدرك كل[1] واحد منهما صاحبه إنمّا يكون الآن فأمّا عند انتهائهما إلى الانقطاع فهناك يُجمعان كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة: 9، 10]، فتأملّ الآن في ضوء هذه الكواكب ثم [اعرف] زوال الضوء عنها في العاقبة كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: 1، 2]، وتأمّل الآن حركاتها العجيبة ثم اعرف انتهاء حركاتها إلى السكون كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: 5]، فهذه جملة الكلام في صفة الشمس والقمر.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 17، 18]، واعلم أنه تعالى رجع هٰهنا إلى دلائل الأنفس وهو كالتفسير لقوله: «خلقكم أطواراً» فإنه تعالى بيّن أنه خلقهم من الأرض ثم يردهم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى.

واعلم أن كيفية خلق الإنسان من التراب سيأتي شرحها في باب خلقة الإنسان إن شاء الله تعالى.

واعلم أن في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ بحثان:

الأول: في معنى هذه الآية وجهان: الأول: معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: أنبت الأب الأول لكم من الأرض وهو آدم ﷺ.

الثاني: أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلق البشر من النطفة، والنطفة متولدة من الأغذية والأغذية متولدة من النبات المتولدة من الأرض.

البحث الثاني: كان ينبغي أن يقال: أنبتكم من الأرض إنباتاً ولكن لم يقل ذلك

---

(1) [كل]: في الأصل: وكل.

بل قال: أنبتكم نباتاً والمعنى أنبتكم من الأرض فنبتم نباتاً. وفيه دقيقة لطيفة وتلك لأنه تعالى إنما ذكر هذا ليستدل به على إثبات الصانع والإثبات صفة الله تعالى وتخليقه، وصفة الله غير محسوسة فلا يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع، فكان العدول من لفظ الإنبات إلى لفظ النبات لهذه الدقيقة.

الحجة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: 19، 20]، واعلم أن شرح صفات الأرض قد تقدم فلا نعيده.

obeikandl.com

الفصل السابع:
في شرح مناظرة موسى ﷺ مع فرعون في إثبات الصانع المختار ﷻ

واعلم أنا قبل الخوض في شرح تلك المناظرة نقدم مقدمات:

المقدمة الأولى: أن كتب القصص ناطقة بأن فرعون كان يدعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين والنبات والحيوان، حتى ذكروا أنّ إبليس ذهب إلى دار فرعون وهو في المستراح فقرع الباب فقال: من أنت؟ فقال إبليس: فهل يخفى على ربّ الخلق ما وراء الباب؟

فلمّا دخل عليه إبليس قال له فرعون: من شرّنا؟ قال إبليس: أنت، قال: لِمَ؟ قال: لأني أطوف الشرق والغرب وكان منتهى أمري في آدم أني قلت: أنا خير منه، وأنت مع نقصك وقصرك تقول: أنا ربكم الأعلى ـ وكان فرعون قصيراً جداً حتى قيل أن قميصه كان طوله ثلاثة أشبار ـ فكيف أكون شرّا منك؟ ثم خاف إبليس أن يرجع فرعون عن طريقته بسبب هذه المناظرة فقال: وهل تعرف شرًا مِنا؟ قال: لا. فقال إبليس: الذي يستعمل عمل الآخرة في كسب الدنيا. وأمثال هذه الحكاية في كتب التذكير كثيرة.

واعلم أنه يبعد عندي أن يقال: أنه كان يدّعي أنه خالق السمٰوات والأرض والجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان، **ويدل عليه وجهان:**

الحجة الأولى: أن فرعون وقومه إما أن يقال: إنهم كانوا عقلاء أو مجانين، فإن كانوا عقلاء امتنع منه ادعاء كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين لأن العلم بفساد ذلك ضروريّ وما كان كذلك امتنع وقوع الخلاف فيه بين العقلاء، وأما إن قلنا: إنهم كانوا مجانين فهذا باطل لوجوه:

الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لما كان يليق بحكمة الله تعالى إرسال الرسول إليهم ولا إنزال الكتب عليهم، فقال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبيّ حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ**».

الثاني: وهو أن مناظرات فرعون مع موسى عليه السلام تدل على أنه كان في غاية الخبث والمكر والدهاء وذلك لا يليق بالمجانين.

الثالث: أن ضبط تلك الممالك وتسخير أولئك الأقوام الكثيرين ينافي الجنون.

الحجة الثانية: أن ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام، والدليل عليه: لما هرب موسى عليه السلام منه إلى مدين قال له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: 25]، ويقال أنه ما كان بين مصر وبين مدين إلا ثمانية أيام، ومع هذا القصور في ملك الدنيا كيف يجد العاقل من نفسه أن يدعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين فثبت ما ذكرناه من فساد هذا الكلام، فإن احتجّ القائلون بذلك القول بأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، وحكى عنه في سورة القصص أنه قال فرعون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، فادعى الربوبية في الآية الأولى والإلٰهية في الثانية وذلك يدل على ما قلناه.

والجواب: أنا بينا بالدلالة القاطعة أن مثل هذا الإنسان إذا كان عاقلاً فإنه لا يجوز أن يدعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين فلا بد من تأويل لفظ الرب ولفظ الإلٰه فتقول: الرجل لعله كان دهرياً يظهر القول بإنكار الصانع، وكان يقول: الأفلاك والكواكب واجبة الوجود لذواتها وهي المؤثرة في حوادث العالم وإذا كان كذلك فلا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب ولا رسول ولا تكليف.

ثم يجب على ملك البلدان أن يقوم بمصالح الرعية ويجب على الرعية أن تنقاد، والآمر ذلك الملك فإذا كان الملك هو الذي يقوم بمصالحهم ويهتم بتدبيرهم ويعتني بشأنهم، كان ربّا ومربياً لهم وإذا كان هو مربياً لهم ومنعمّا عليهم وجب عليهم أن يكونوا منقادين لأوامره وتكاليفه، معترفين بعبوديته وعبادته، وإذا كانوا كذلك كان هو معبوداً، والإلٰه هو المعبود وكان مراده من ادعاء الربوبية والإلٰهية هذا المعنى.

ويحتمل أيضاً أن يقال: إنه كان من الصابئة، وهم الذين يقولون: البشر عبيد الكواكب، والكواكب عبيد الإلٰه الأكبر للعالم، فيجب على البشر عبادة الكواكب،

والقائلون بهذا القول يسمون بالمفوضة وأصحاب الوسائط، وهذا القول أقرب.

والدليل عليه قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127]، فأثبتوا له آلهة وهي: إما الكواكب وإما الأصنام، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:24] معناه: أنتم عبيدي وتحت أمري، وأنا عبد الشمس والقمر، وهما عبد الإله الأكبر وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أنّ إلٰهكم وإلٰهي هو الشمس والقمر وإلٰه الشمس والقمر هو الإلٰه الأكبر؛ فيرجع حاصل الكلام إلى أن فرعون كان إما من الدّهرية وإما من الصابئة، أمّا أن يقال: إنه كان يدَّعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين فهذا لا يليق بأحد من العقلاء لأنّه لا يصدّق على ذلك ولا يسلّم له.

المقدمة الثانية: أنه تعالى حكى في سورة القصص أنه قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: 38]، وقال في سورة المؤمن: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: 36-37].

واعلم أن كثيراً من أهل الأثر روى أنه ـ لعنه الله ـ لمّا أمر ببناء الصرح جمع هامانُ العمال حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجرَ الخشب وضرب المسامير، فشيدوا وبنوا ذلك الصّرح حتى بلغ مبلغاً لم تبلغه [منارة](1) أحد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس وضرب بجناحيه فقطعه ثلاث قطع، قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، وقطعة وقعت في البحر وقطعة بقيت منهدمة ولم يبق أحد من عماله إلاّ وقد هلك.

ويروى في هذه القصة: أن فرعون ارتقى على ذلك الصّرح ورمى نشابة إلى السماء؛ فأراد الله تعالى أن يفتنهم فردّ النشابة إليهم ملطخة بالدّم، فقال فرعون عند ذلك: قتلت إلٰه موسى، فعند ذلك بعث الله جبريل عليه السلام حتى خرّب ذلك القصر،

(1) [منارة] الكلمة غير واضحة في الأصل، وتشبه كلمة: بنيان أيضاً.

وفرّعوا على هذه الحكاية وجوهاً كثيرة من الكلمات.

واعلم أن مثل هذا العمل لا يليق بالعقلاء ويدلّ عليه وجوه:

الحجة الأولى: أنّ فرعون وقومه لمّا كانوا من العقلاء فلا شك أن كثيراً ما يكونون على جبل يكون من أعلاه إلى أسفله فرسخ [أو][1] فرسخان ،ثم أن كلّ واحد يرى السماء من أعلى ذلك ومن أسفله على قدر واحد من غير تفاوت ألبتة، ومن المعلوم أن من وضع بناءً يكون مقدار ارتفاعه في الهواء فرسخين كالمتعذر وبتقدير أن يحصل ذلك فإنه لا يتفاوت قدر السماء في الحسّ بسبب الصعود على أعلاه، ومتى كان كذلك فالعاقل العارف بهذا الأمر كيف يليق به أن يبني الصرح حتى يصعد منه إلى السماء؟

الحجة الثانية: إنّ الذي يقال: أنّه رمى السهم إلى السماء فرجع ملطخاً بالدم فقال: قتلت إلٰه موسى، هذا أيضاً من سخف الرأي الذي لا يليق بالعقلاء؛ فكيف يليق بالعاقل أن يحاول إيصال السهم إلى السماء؟! وبتقدير أن يفعل ذلك فكيف يمكنه أن يقتل إلٰه السماء بهذا القدر من العمل؟! فلعلّ إلٰه السماء يكون مستتراً بحجاب داخل السماء لا يصل إليه السهم، تعالى الله عن هذه الأوهام الفاسدة علواً كبيراً.

أمّا هذه الكلمات فليست من أحاديث العقلاء في شيء وإنّما هو من سخف أرباب الطامات الذين غرضهم تشويش قلوب الأغيار من المستمعين، وكلام الله تعالى منزه عنه وعن أمثاله، ويصير أمثال هذه الترهات مشرعاً قوياً لمن أراد الطعن في القرآن، بل الصواب عندنا في تفسير هذه الآية أنّ هذا الكلام من تتمة قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾؛ وذلك لأن الرّجل كان دهرياً فقال لموسى عليه السلام: هذا الإلٰه الذي تدعي وجوده غير مشاهد ولا محسوس، ولا دليل أيضاً على وجوده؛ فإنّه يكفي لحدوث الحوادث الأرضية حركات الأجرام الفلكية، وإذا كان غير معلوم بالضرورة ولا بالدليل فكيف يمكن إثباته؟ فهذا هو مراده من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ثم قال عند هذا الكلام على سبيل السخرية: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ومثل هذا الكلام لا يقال على سبيل التحقيق بل على سبيل

(1) [أو] في الأصل: و.

الاستبعاد وبيان أنه لا سبيل له، نظير قوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: 35]. . . .

وليس المقصود بيان أنه يجب عليه أن يفعل ذلك حتى يأتيهم بآية، بل الغرض بيان أنه لا سبيل إلى ذلك فكذا في هذه الآية، فهذا ما عندي في تفسيرها والله أعلم بمراده.

المقدمة الثانية: إن فرعون وإن كان من المنكرين لوجود الصانع باللسان، ولكن من الناس من قال: إنه كان عارفاً بقلبه بربّه، إلّا أنه كان يظهر الإنكار تكبراً وتجبّراً وعناداً، واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102]، فمن نصب التاء في «علمت» كان هذا [عنده][1] خطاباً لموسى مع فرعون، وهذا يدل على أن فرعون كان عارفاً بربّه.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]، وهذا صريح في المطلوب.

الحجة الثالثة: قوله تعالى في القصص في صفة فرعون وقومه:

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 39]، وهذا يوهم أنّهم كانوا يعترفون بالمبدأ منكرين المعاد.

الحجة الرابعة: لما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:23]، قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24]، قال فرعون للملأ من قومه وهم حوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]، يعني أنا أطلب الماهية وهو يذكر ما يدلّ على الصفة الخارجة عن الماهية؛ فإن الخالقية صفة خارجة عن الماهية، فهذا يدل على إن فرعون ما نازعه في وجود الصانع بل كان يطلب

---

(1) [عنده] زيادة حسنة في السياق.

obeikandl.com

الماهية.

الحجة الخامسة: إنّه لما قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 49]، أجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50]، وقال أهل اللغة كلمة: "الذي" تقتضي وصف المعارف بجمل معلومة وهذا يدل على أنه كان ثبت عند فرعون أن الخلق والهداية لابد لهما من [فاعل قادر][1] مختار.

الحجة السادسة: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: 134]... الآية ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: 135]، فالقوم لما قالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الرجز، دل على أنهم كانوا معترفين بوجود الإلٰه سبحانه.

الحجة السابعة: إنّا دللنا على أن فرعون كان عاقلاً وإلا لما حسن بعثة الرّسول إليه وتوجيه التكليف عليه، ولمّا كان من العقلاء [شهد][2] تغير أحواله في نفسه وبدنه وفي آبائه وأجداده بافتقاره إلى صانع حكيم مدبر عليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25، والزمر: 38]، فهذا ما قيل في هذا الباب، وبالجملة فقد كان كافراً عظيم الكفر سواء كان كفره بسبب الجهل أو بسبب العناد.

ولمّا قد فرغنا من هذه المقدمات فلنرجع إلى المقصود فنقول: إنّ سؤال فرعون عن موسى عليه السلام في باب إثبات الصانع كان على وجهين:

أحدهما سأله عن الصانع بكلمة "ما"، والثاني أنه سأله عنه بكلمة "من".

وأما السؤال بكلمة "من" فهو في سورة طه قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: 49].

وأما السؤال بكلمة "ما" فهو قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: 23]، وقبل الخوض في التفسير لا بد من بيان الفرق بين

(1) [فاعل قادر] في الأصل: قادر فاعل.
(2) [شهد] في الأصل: شهدت.

السؤالين فنقول: المطلوب بسؤال "من" التعين الحاصل بسبب الصفات العرضية تقول من هذا الرّجل؟ فنقول في جوابه: فقيه عربي، وما يجري مجرى هذه الصفة.

وأما المطلوب بسؤال "ما" فهو التعين الحاصل بسبب الماهية و[مقومات][1] الحقيقة، تقول ما هذا الشيء؟ فيكون جوابه جوهر أو جسم أو غير ذلك.

إذا عرفت هذا فنقول: عَلِمْنا بصفات الله من علمه وقدرته وعمله وإرادته متقدم على علمنا بحقيقة ذاته المخصوصة وكنه ماهيته، وذلك لأن العلم بكنه الحقيقة إمّا أن لا يحصل للبشر وإن أمكن حصوله للبشر إلا أن هذه المرتبة تكون متأخرة عن العلم بقدرته، وعلمه بلا كنه حقيقته المخصوصة متقدم بالرتبة على الصفة، إلا أن المحكى عنه في القرآن هو كيفية [التوصل][2] بالدلائل إلى معرفة الله تعالى، وإذا كان كذلك كان السؤال بما؛ فلا جرم راعى الله تعالى هذا الترتيب فذكر السؤال بمن في سورة طه وذكر السؤال بما في سورة الشعراء، وهذا سرّ عجيب، **ولنذكر البحث عن هذين الموضعين**:

الموضع الأول: قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 49] وفيه سؤالات:

الأول: لم قال: «فمن ربكما» ولم يقل: فمن إلٰهكما؟

الجواب: لأنه أثبت نفسه ربًا لموسى وهو قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 18]، فذكر ذلك على سبيل التعجب، كان يقول: أنا ربك فلم تدعي ربًا آخر غيري.

وهذا الكلام يشبه بكلام نمروذ لإبراهيم عليه السلام لما قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، فقال نمروذ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، ولم يكن الإحياء الذي ذكره شبيهاً بالإحياء الذي تمسك به إبراهيم عليه السلام إلا في اللفظ، فكذا هٰهنا لما ادعى موسى عليه السلام ربوبية الله عز وجل ذكر فرعون كونه ربًا لموسى، وما كان بين الربوبية التي ذكرها موسى وبين الربوبية التي ذكرها فرعون مشابهة إلا في اللفظ.

(1) [مقومات] في الأصل: مقدمات.
(2) [التوصل] في الأصل: التوسل.

السؤال الثاني: إن فرعون طول المناظرة في سؤال "ما" ولم يطول في سؤال "من" فما الفرق؟

الجواب: الفرق ما ذكرنا أن المطلوب في سؤال "من" معرفة الصفات وهذا مقام واضح ليس فيه شيء من الشبهات كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25، الزمر: 38]، فلا جرم ترك فرعون فيه التطويل، وأما المطلوب بسؤال "ما" فهو كنه الماهية وذلك مقام صعب كما قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91، الحج: 74، الزمر: 67]، فلهذا السبب طول المناظرة.

السؤال الثالث: أن فرعون قال بعد هذا الكلام: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: 51]، **وأيّ تعلق لهذا الكلام بما قبله؟**

فأجاب موسى بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52]، ثم عاد مرة أخرى إلى ذكر دلائل إثبات الصانع وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53]، فكيف وقع ذلك الكلام الأجنبي في البين؟

الجواب: أنا قد بينا الدلائل الدالة على إثبات الصانع وقدرته وعلمه وحكمته في غاية القوة والظهور ولا يمكن إلقاء شيء من الشكوك والشبهات فيه فلمّا طالبه بسؤال "من" كان جواب موسى في غاية الظهور، وعجز فرعون عن إلقاء الشكوك والشبهات فيه فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بكلام أجنبي عنه لئلا تظهر قوة كلامه فسأله عن تواريخ المتقدمين فعرف موسى ﷺ أن غرضه تشويش هذا الكلام عليه فلم يلتفت إليه بل دفعه بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ يعني لا فائدة لنا في هذا السؤال وهذا الجواب، ثم رجع إلى تقرير كلامه الأول فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتأمل هٰهنا في سعي المبطلين في إخفاء الحق وانظر إلى قوة قلوب المحقين وعدم التفاتهم إلى لغوهم وجهلهم، ومن أنصف علم أن كل آية من هذا الكتاب الكريم معجز ظاهر فضلاً عن كل هذا الكتاب.

السؤال الرابع: ما وجه دلالة قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50]، **على وجود الصانع؟**

الجواب - والله أعلم -: أن هذا الدليل الذي حكاه لمحمد عليه أفضل السلام عن إبراهيم ﷺ في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: 78]، هو الذي ذكره

الله تعالى لمحمد ﷺ بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 1 - 3].

وتقرير هذا الدليل على سبيل التفصيل أن الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة في تلك الأبدان، وخلق جواهر الأبدان مقدم على إبداع القوى فيها ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، فالتسوية للقالب ونفخ الروح عبارة عن إبداع القوى فيه؛ قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 12 ـ 14]؛ فظهر أن الخلق مقدم على الهداية فلهذا المعنى قدم الله تعالى الخلق في الذكر على الهداية.

ثم اعلم أن الشروع في شرح عجائب حكمة الله في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له، ومن أراد تصنيفاً مشتملاً على جميع تلك الوجوه فذلك التصنيف هو جميع عالم الأجسام والأرواح.

أما عالم الأجسام فخذ من أعلى سطح العرش إلى أسفل [ما](1) تحت الثرى، وخض بفكرك في كل ذرة من ذراتها فإنك تجد تلك الذرة في دلالته على كمال قدرة الله وحكمته بحراً لا ساحل له، فمن الذي يمكنه أن يعرف تمام حكمة الله في خلقه جناح بعوضة وتركيب أعضائه وتأليف أبعاضه وتأليف الأعظم والعروق والأعصاب ونفخ الروح فيه وإبداع الحواس الخمس والذهن والتمييز فيه؟ فإذا عجز عقلك عن معرفة البعوضة فأين أنت من معرفة حكمة الخالق والخلق والهداية في آخر السمٰوات والأرض وقد قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]؟

فعند هذا تشاهد عجزك وقصورك عن معرفة أقل الأشياء وعن الإحاطة بأقلّ شاهد من شواهد جلال الله ودلائل قدسه وعزته، وهذا آخر مقام الصديقين كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 27].

وإن أردت أمثلة هذا المعنى فتأمل الأبواب المتقدمة المشتملة على عجائب

(1) [ما] زيادة يقتضيها السياق.

خلقة الإنسان والحيوان والنبات والشمس والقمر والسمٰوات والأرض، وفي الأبواب الآتية المشتملة على عجائب خلقه.

البحث الثاني: وهو السؤال عما ذكره الله تعالى في سورة الشعراء ففيه أسرار عجيبة.

واعلم أن هذا البحث لا يمكن إلا بتقديم مقدمة عقلية وهي أنه إذا كانت حقيقة من الحقائق مجهولة فتعريفها إمّا أن يكون بنفسها أو بما يكون داخلاً فيها ومقوماً لها، أو بما يكون خارجاً عنها ولاحقاً لها أو بما يتركب من القسمين، أعني الأمور الداخلة والأمور الخارجة، أمّا تعريفها بنفسها [فمحال][1] لأن المعرّف معلوم قبل المعرَّف فتعريف الشيء بنفسه يقتضي تقدم الشيء على نفسه وهو محال.

وأما تعريف تلك الحقيقة بالأمور الداخلة في قوام الماهية فهذا في حق واجب الوجود محال لوجهين:

الأول: إن هذا إنما يتأتى في الحقيقة التي تكون مركبة من [الأجزاء المقومة][2] فذلك في حق واجب الوجود محال، لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيرُه، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته فما ليس [ممكناً][3] لذاته فهو غير مركب من الأجزاء وإذا لم يكن مركباً من الأجزاء فإنه يمتنع تعريفه بأجزائه.

والثاني: إن بتقدير أن يكون واجب الوجود مركباً من الأجزاء إلا أن أجزاء ماهيته غير معلومة فيمتنع تعريفه بأجزائه.

ولمّا ثبت فساد هذين القسمين ثبت أنه لا يمكن تعريف[4] واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره ثم إن تلك اللوازم والآثار قد تكون خفية وقد تكون جلية، ولا يجوز تعريف الواجب باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية وأظهر آثار الواجب

---

(1) [فمحال] في الأصل: محال.
(2) [الأجزاء المقومة] في الأصل: أجزاء القوم.
(3) [ممكناً] في الأصل: ممكن.
(4) لا يمكن تعريف: في الأصل: لا يمكن غير معلومة في تعريف.

ونتائج قدرته وحكمته هو هذا العالم المحسوس، وهو السمٰوات والأرض وما بينهما.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إن فرعون لعنه الله لما سأل موسى عليه السلام بسؤال «من» في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فوجد كلام موسى في غاية القوة، عدل عن ذلك السؤال إلى سؤال آخر وهو السؤال بـ «ما» لأن الجواب عن هذا السؤال في غاية الصعوبة ويمكن إلقاء الشبهات فيه فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 23]، فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24]، والمعنى أنه لمّا سأل جاء في الجواب عن السؤال الأول وهو السؤال بلفظة من وجوب انتهاء هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود لذاته، فثبت أنّ واجب الوجود مطلق منزه عن الكثرة في حقيقته إلاّ بذكر لوازمه وآثاره الظاهرة الجلية، وثبت أنّ أظهر آثار [واجب][1] الوجود لذاته هو هذا العالم المحسوس وثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته وذاته المخصوصة إلا بذكر أنه خالق لهذه السمٰوات والأرض؛ فقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ معناه: إن كنتم موقنين بحقيقة هذه المقدمات فاعلموا أنّه لا جواب عن سؤالكم إلا هذا الذّي ذكرت.

ولمّا ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: 25]، أظهر التعجب من كلام موسى عليه السلام، يعني أنا طالب للجواب الدال على الماهية وهو يذكر الجواب الدال على الصفة، وهذا الجواب هو جواب السؤال بـ «من»، [وأنا أطلب][2] جواب السؤال بـ «ما» فأين أحدهما من الآخر؟

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد معرفة نفس تلك الماهية؛ لأنّا إذا قلنا في تعريف شيء: أنه الذي يلزمه اللازم الفلاني فهذا يتوجه عليه سؤال، وهو: أن تلك الحقيقة هل هي معلومة أم لا؟ فإن كانت معلومة فلا حاجة إلى تعريفها بذكر هذا اللازم وإن لم تكن معلومة فكيف يعلم أنها يلزمها هذا اللازم لأن قولنا: يلزمها ذلك اللازم تصديق والتصديق مسبوق بالتصور فلو كان المتصور مستفاداً من هذا التصديق لزم الدور.

---

(1) [واجب] في الأصل: وجوب.
(2) [وأنا أطلب] في الأصل: وأما طلب.

فثبت أن قوله: «رب السمٰوات والأرض» لا يصلح جواباً عن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعند هذا أجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26]، فكأنه عدل عن تعريف تلك الحقيقة بخالقية السماء والأرض إلى تعريفه بكونه خالقاً لنا ولآبائنا؛ وذلك لأنّه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السمٰوات والأرض واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق الموجد إلى أن يظهر فساد هذا الاعتقاد بالبرهان.

أمّا [إنه][1] لا يمكن أن يعتقد في نفسه وفي آبائه وفي أجداده كونهم [واجبي][2] الوجود [لذواتهم][3] لما أن المشاهدة دلّت على أنهم وجدوا بعد العدم وعدموا بعد الوجود، وما كان [كذلك][4] [كان][5] ممكناً محدثاً فيظهر [وجوب افتقارهم][6] إلى المرجح والموجد؛ فلهذا السبب عدل موسى ﷺ من الكلام الأول إلى هذا الكلام؛ فعند هذا قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]، والمعنى أني سألته عن الماهية فأجاب بذكر الصفة فلمّا أنكرت عليه هذا الجواب ذكر جواباً مثل الجواب الأول، فإن المذكور في الجوابين هو صفة الخالقية وذكر الصفة لا يصلح جواباً لسؤال الطلب للماهيّة، فهذا مجنون حيث لا يفهم السؤال بعد التكرير عليه مرة أخرى، فقال موسى ﷺ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 28]، فعدل إلى طريق آخر أوضح مما تقدم وذلك لأن الجواب الأوّل إشارة إلى دلائل الآفاق، والجواب الثاني إشارة إلى دلائل الأنفس، وهذا الجواب الثالث مركب من دلائل [الآفاق و][7] الأنفس معاً؛ لأن قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إشارة إلى دلائل [الآفاق وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إشارة إلى دلائل][8] الأنفس.

فإذا تأمّلت فيه علمت أن موسى ﷺ لم يترك في عالم المحسوسات شيئاً يدل

---

(1) [إنّه] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [واجبي] في الأصل: واجبة.
(3) [لذواتهم] في الأصل: لذواتها.
(4) [كذلك] في الأصل: ذلك.
(5) [كان] زيادة يقتضيها السياق.
(6) [وجوب افتقارهم] في الأصل: أحد افتقاره.
(7) [الآفاق] زيادة يقتضيها السياق.
(8) [الآفاق وقوله: «وما بينهما إن كنتم تعقلون» إشارة إلى دلائل] زيادة يقتضيها السياق.

على الله تعالى إلّا وقد ذكره لأن دلالة عالم المحسوسات على الله تعالى إما من الآفاق أو من الأنفس أو منهما معاً.

واعلم أن موسى ﷺ أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار، وبالمغرب غروب الشمس وظهور الليل، والأمر ظاهر في أن هذا التدبير المحكم العجيب لا يحصل إلّا بتدبير مدبّر قاهر حكيم ﷻ، وهذا بعينه طريقة إبراهيم ﷺ مع نمروذ فإنه قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، وهو الذي قاله موسى في قوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26].

ثم لمّا طالب نمروذ بتمام الدلالة قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258]، وهو عين قول موسى ﷺ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: 28].

واعلم أن موسى ﷺ إنما قال ههُنا: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لأنه لما ثبت بالبرهان القاهر أنه لا يمكن تعريف الحقيقة بنفسها، ولا يمكن تعريف حقيقة واجب الوجود بأجزائها، ولما ثبت أنه فرد صمد منزه عن التركب ولا يمكن أيضاً تعريفه بما يتركب عن الداخل والخارج لأنه يقتضي كون تلك الماهية متركبة.

ولما بطلت هذه الأقسام الثلاثة لم يبق طريق إلى تعريف تلك الحقيقة إلا بلوازمها وآثارها الظاهرة، فكأنه ﷺ قال: إن كنتَ من العقلاء وتفهم الكلام وتميز بين الحق والباطل فاعلم أنه لا سبيل إلى تعريف حقيقته إلا بهذا الطريق الذي ذكرت، وهذا آخر هذه المناظرة وهي في غاية الشرف والجلالة.

واعلم أن من فوائد هذه المناظرة أنها تدل على أنه تعالى ليس بجسم ولا بمتحيز ولا بشكل، لأنه لو كان كذلك لكان الجواب الكاشف عن الماهية ممكناً فحينئذ يكون جواب موسى ﷺ باطلاً وسؤال فرعون حقاً.

ولما كان القول بذلك باطلاً علمنا أنه منزه عن الجسمية والجوهرية والحيز، وبالله التوفيق.

ولما كان ختم هذه المناظرة على التمسك بشروق الكواكب وغروبها فلنذكر هٰهنا كيفية هذه الدلالة.

الفصل الثامن:
في شرح كيفية دلالة الشروق والغروب على وجود الصانع الحكيم

اعلم أنه تعالى ذكر كيفية الشروق والغروب في آيات: إحداها أنه ذكره بلفظ الوحدان فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28]، ثانيها أنه ذكر بلفظ التثنية فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمٰن: 17]، ثالثها ذكر بلفظ الجمع فقال: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40]، ومنها أنه تعالى عبّر عن الشروق والغروب بعبارة أخرى فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 17-18] ، وقال في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1]، وهو إشارة إلى زمان الطلوع ثم قال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وهو إشارة إلى زمن الغروب. ومنها أنه تعالى خصّ أول زمن الطلوع بالذكر فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96]، وخص زمن الغروب بالذكر فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: 1]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76].

وهاهنا مباحث:

البحث الأول: وهو أن الطلوع والغروب حالتان عجيبتان تدلان على الافتقار إلى الخالق المدبّر الحكيم، وذلك لأنا إذا نظرنا إلى الكواكب أول طلوعه من أفق المشرق فإنه يطلع مستنيراً متلالأً مثل النار، لا في نوره كدورة ولا غبرة ولا ظلمة، وإذا نظرنا إليه وهو في أفق الغرب تراه قد ذهب نوره ورونقه حتى أن الشمس مع عظم جرمها وكمال نورها إذا قربت من الغروب فإنه يذهب نورها، وإذا اعتبرنا هذه الأحوال علمنا أن أول طلوع الشمس يشبه ولادة الصبي ولذلك فإن أهل النجوم جعلوا الدرجة الطالعة من الفلك دليل الحياة قالوا: كما إن الولد ظهر في هذا العالم بعد أن كان غير ظاهر كذلك ظهرت هذه الدرجة في تلك الساعة بعد أن كانت غير ظاهرة،

فلمّا حصلت المشابهة بينهما من هذا الوجه جعل تلك الدرجة دليلاً على حياته. ثم إن الكوكب بعد طلوعه يزداد كل لحظة فصاعداً قوة[1] ونوراً واستعلاء وكمالاً ولا يزال كذلك إلى أن يقترب من وسط السماء، وإلى هذا الوقت يشبه حاله حال الآدمي في زمان النشوء والنماء، ثم إذا قربت الشمس في وسط السماء فهنالك يبقى زماناً على حالة واحدة لا يشاهد فيها أثر الارتفاع ولا أثر الانخفاض، وهذه الحالة من الشمس وسائر الكواكب تشبه حال الإنسان في زمن الشباب ومدة الوقوف وهي المدة التي لا تظهر فيها زيادة ولا نقصان، ثم إن الشمس والكواكب بعد ذلك يقع في الربع الغربي من الفلك ولا تزال يأخذ به الانحطاط قليلاً إلا أنه لا يظهر بسبب ذلك الانحطاط نقصان في نورها وقوتها وحرارتها، وهذه الحالة من الكوكب تشبه الإنسان في سن الكهولة، وآخر هذا الوقت هو أول وقت صلاة العصر ثم من بعد صلاة العصر تأخذ قوة الشمس في النقصان الظاهر والانحطاط البين فينقص نوره ويقل ضوؤه ويعظم امتداد ظله ولا يزال تتزايد هذه النقصانات إلى أن يصل الكوكب إلى أفق الغرب وهذه الحالة في الشمس والكوكب تشبه حال الإنسان في سنّ الشيخوخة، وأما غروبها في أفق المغرب فلا يكون إلا بعد ذهاب نورها واصفرار لونها ونقصان قوتها وارتعاش ذاتها وسقوطها في النظر على وجه الأرض، ثم أنها تغرب فتصير فكأنها فنيت وبطلت وهذ الحالة تشبه حال الإنسان عند الموت فإنه أولاً يذهب نور وجهه ويبطل حسن صورته ويصفر لونه وتضعف قواه ويأخذ بالارتعاش[2] والضعف ثم يسقط على وجه الفراش بحيث إنه لا يمكنه أن يرفع رأسه ثم يموت بعد ذلك، فهذه الأحوال الأربعة للشمس والقمر وسائر الكواكب تشبه الأحوال الأربعة لكل حيوان ونبات نعني من النموّ وسنّ الوقوف وسنّ الكهولة وسنّ الشيخوخة ثم يحصل الموت بعد ذلك، ثم إن الشمس إذا غربت بقيت آثارها في أفق المغرب وهو الشفق، ثم بعد ذلك يزول ذلك الشفق ولا يبقى في هذا العالم من آثار الشمس شيء ألبتة. وهذا يشبه أن الإنسان إذا مات بقي بعد الموت ذكره وآثاره أياماً قليلة ثم إنه يبطل ذلك الذكر وتلك الآثار ولا يبقى في الدنيا منه أثر ولا خبر، فهذه الأحوال الخمسة للإنسان. فلهذا السبب أوجب الشارع الحكيم الصلوات الخمس في هذه الأوقات الخمسة وما أحسن هذا الترتيب وما أشدّ مطابقة الحكمة الشرعيّة النبوية على الحكمة العرشية الروحانية.

---

(1) في الأصل: وقوة.

(2) في الأصل: الارتعاش.

واعلم أنه متى تأملت في جميع الأجرام العلوية والسفلية والإبداعية والعنصرية ظهر لكل عاقل أنها عند الشروق والتصاعد آخذة في الكمال بعد أن كانت ناقصة، وعند الانحدار من وسط السماء إلى نهاية الغروب أخذت في النقصان بعد أن كانت كاملة، وتوارد هذه النقصانات بعد الكمالات والكمالات بعد النقصانات على سبيل الدوام والاستمرار يدل على أنه لا كمالاتها لها بذواتها من أنفسها بل هي تحت تسخير مسخّر وتدبير مدبّر قاهر يتصرف فيها بقدرته ويجريها على حسب إرادته ومشيئته له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

البحث الثاني: في الشروق والغروب وهو أن حال ما يأخذ ذلك الكوكب في الغروب ترى كوكباً آخر في مقابلته وترى كوكباً آخر فيطلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكباً آخر قد وصل إلى وسط السماء، وكوكباً آخر قد وقع في الربع الغربي وقرب من الغروب، فإذا اعتبرت هذه الأحوال تراها متشابهة لأحوال الخلق في هذا العالم فإنسان يموت وإنسان يولد وثالث في تلك الساعة يكون طفلاً ورابع شاب وخامس كهل وسادس شيخ، وكما أن كواكب السماء مختلفة الأحوال فبعضها سعد وبعضها نحس، وبعضها قويّ النور وبعضها أضعف وبعضها قريب من وسط الفلك وبعضها واقع في أطراف الفلك، وبعضها في الشرق وبعضها في الوبال والهبوط والخلو عن الحظوظ، فكذلك نرى أشخاص هذا العالم بعضهم في السعادة وبعضهم في النحوسة، وبعضهم في الغنى وبعضهم في الفقر، وكذا القول في الدولة والعلو والذل والسقوط، وكما أن مدبّر العالم العلوي دبَّر نظام تلك الكواكب مع اختلافها في الطلوع والغروب والنورانية والضعف من غير أن يختلّ شيء من أحوالها فكذلك تدبّر أحوال أشخاص العالم السفلي مع اختلافهم في السعادة والشقاوة والغنى والفقر، وعند هذا تلوح لك شمة من أسرار قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: 29][1]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: 5].

وتمام الكلام في هذه المباحث العميقة ما إليه الإشارة في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:

---

(1) في الأصل: يوجد بعده وقوله «لا يشغله شأن عن شأن».

54، 55]، فقوله[1] تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من كيفية التسخير والتدبير وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ فيه سرٌّ عجيب وحكمة بالغة[2] وهي أنك إذا شاهدت في أجزاء السمٰوات والكواكب والأرض آثار التسخير والتدبير يقع في قلبك أن تعرف وجه الحكمة في كل واحد منها على سبيل التفصيل فحينئذٍ يقال لك: قِف في درجتك ولا تتعدّ طورك، ولا تلق عقلك في بحرٍ لا ساحل له ولا تتكلّف[3] صعود جبل لا نهاية له، ولا تطمع في الوصول إلى ما هو فوق فهمك ووهمك وعقلك وروحك فإنك لست من رجال هذه الأنوار، ولكن اعترف لنفسك بالعجز والذلة والقصور، واعترف لخالق[4] هذه الموجودات على سبيل الإجمال بغاية الجلال ونهاية الكبرياء وقل: ألا له الخلق والأمر والحكمة والعز[5] والعلو والسلطان والكبرياء تبارك الله رب العالمين ومدبر الأجساد والأرواح والعلويات والسفليات أجمع، ثم إذا تركت الخوض في ذلك التفصيل واعترفت بهذا التعظيم على سبيل الإجمال، فعند هذه الحالة[6] ارجع إلى نفسك واعتبر حال عجزك وقصورك واشتغل بالدعاء والتضرع فها هنا غاية درجات الصديقين ونهاية خطرات أفكار العارفين وليس وراءه للعقول مسرى ولا مطار ولا للأفكار مجال ولا مخطىء، وإليه الإشارة بقوله تعالى في آخر هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ فما أجمل هذه التلويحات التي اشتمل عليها القرآن العظيم، وما أشرف هذه الرموز الحاصلة في مطاوي آيات الذكر الحكيم، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو إنه لا يخطر ببال هذا المسكين الكاتب لهذا الكتاب ولا يدور في خياله طريق أحسن ولا أنفع ولا أجذب للأرواح البشرية والعقول الإنسانية إلى حضرة القدس الأحد الصمد من هذه البيانات الإلٰهيّة والأسرار العلوية، ونظير هذه الآية في قوله تعالى في آخر آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 190 ـ 191]، فقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى

---

(1) في (أ) قوله.
(2) في (أ) عالية.
(3) في (ب) ولا تكلف نفسك.
(4) في (ب) بخالق هذه الأنوار.
(5) في (ب) القوة.
(6) في (أ) الحال.

وقوع العقل[1] في هذا البحر الذي لا ساحل له ولا قعر[2]. وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ إشارة إلى منع العقل من طلب هذه التفاصيل فيجب أن نقتصر على الثناء المجمل والتعظيم المبجّل، وقولنا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إشارة إلى الاشتغال بالدعاء والتضرع عقيب حصول هذه الحالة.

البحث الثالث: في الاستدلال بكيفية الطلوع والغروب على وجود الخالق المدبّر.

اعلم أن التعبير عن المشرق والمغرب بلفظ الواحد إشارة إلى مشرق الشمس ومغربها، وأما قوله جلّ وعزّ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فالمراد طلوع الشمس والقمر وغروبهما. وأما قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ ففيه قولان:

الأول: المراد منه طلوع الشمس والقمر والنجوم.

والثاني: المراد منه مطالع الشمس ومغاربها وذلك لأن الشمس من أول اليوم الذي تكون في النقطة الأولى من السرطان وهو اليوم الأول من الصيف، إلى أن تحصل في النقطة الأولى من الجدي وهو اليوم الأول من الشتاء، ومجموعه ستة أشهر تطلع في كل يوم من مطلع آخر وذلك مئة وثمانون مطلعاً ثم إنها من أول الشتاء إلى أول الصيف وهو أيضاً ستة أشهر ترجع فتطلع من تلك المطالع بأعيانها، ولما كان للشمس مئة وثمانون مشرقاً ومئة وثمانون مغرباً كان المراد من قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ هذه المشارق وهذه المغارب.

وإذا عرفت هذا فنقول: الاستدلال بأحوال المشارق والمغارب على الخالق المدبر الحكيم في غاية الظهور وذلك لأن هذه الأجسام الفلكية والأجرام الكوكبية لا يمكن أن تكون حركاتها لنفس طبائعها، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الأجسام متساوية في الجسمية وتمام الماهية، وحكم الأشياء المتساوية في الذات وتمام الماهية التساوي في اللوازم والأحكام، وإذا كان كذلك فكلّ ما صحّ على واحد منها صح على الباقي، وإذا كان كذلك كان اختصاص كل فلك

(1) في الأصل: الفعل.
(2) ولا قعر، لا يوجد في (ب).

وكوكب بطبعه وحيزه وشكله وحركته لا بد أن يكون لأجل القادر المختار.

الحجة الثانية: إن الشيء الذي يكون مهروباً عنه بحكم الطبيعة يمتنع أن يكون مطلوباً بمقتضى نفس تلك الطبيعة، وهاهنا الأجرام الفلكية متحركة بالاستدارة، فإن كل نقطة يفرض كونها مهروباً عنها فإن الهرب عنها هو نفس طلبها ونفس التوجه إليها فثبت أن هذه الحركات ليست بالطبيعة.

الحجة الثالثة: لو كانت هذه الحركات طبيعية لوجب أن يكون شروقها وغروبها على نهج واحد وطريقة واحدة، لأن ما يكون من توابع الطبيعة وجب بقاؤها وعدم تغييرها، لكنّا بيّنا أن الشمس تطلع كل يوم من مشرق آخر وتغرب من مغرب آخر، فثبت بهذه الدلائل أن حركات هذه الأفلاك ليست لها من ذواتها وطبائعها فلا بد أن تكون بتدبير مدبر وتقدير مقدّر وقهر قاهر يحركها حسب مشيئته ومقتضى إرادته فتبارك الله رب العالمين.

فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يقال: أن حركاتها بسبب أنها أحياء مختارة؟

قلنا: هَب أن الأمر كذلك إلا أن على هذا التقدير يكون كل واحد منها مخصوصاً باختيار خاص وإرادة خاصة فيعود طلب العلّة لذلك الاختصاص، ولا تنقطع الطلبات ولا تزول الحاجات إلا عند الانتهاء إلى القضاء الإلٰهيّ والتقدير الأزلي السرمدي سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

ومن الآيات الواردة في [هذا][1] في الجنس من الكلام قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 15-18]، واعلم أن الخنس جمع خانس، والخنوس الانقباض والاستخفاء، يقال: خنس من بين القوم، وفي الحديث: «إن الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خنس ـ أي انقبض منه ـ ولذلك سمي الخنّاس». والكنس جمع كانس وكانسة يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو مقرّ الوحش يقال: كنست الظباء في كنسها وتكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، وتشبه الظّبي إذا دخل الكناس.

---

(1) زيادة من (ب).

إذا عرفت هذا فنقول: المعتبرون من المفسّرين ذكروا في الخنوس والكنوس وجهين:

الأول: أن ذلك إشارة إلى رجوع الكواكب واستقامتها فرجوعها [هو الخنوس واستقامتها عكس الرجوع][1] واختفاؤها تحت ضوء الشمس، ولا شكّ أن هذه حالة عجيبة وفيها أسرار عجيبة باهرة فلهذا [المعنى][2] أقسم الله بها.

الوجه الثاني: ما روي عن علي ﷺ واختاره مقاتِل وقتادة: أنها هي جميع الكواكب وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار، وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل. وعندي فيه قول ثالث: وهو أن هذه الكواكب السبعة السيّارة تختلف مطالعها ومغاربها على ما فسّرناه وشرحناه، ولا شكّ أن لها مطلعاً واحداً ومغرباً واحداً هما أقرب المشارق والمغارب إلى سمت رؤوسنا، ثم أنها تأخذ في التباعد من ذلك المطلع قليلاً قليلاً إلى سائر المطالع حتى تصل إلى غاية بعدها عن سمت رؤوسنا، فخنوسها عبارة عن تباعدها عن هذا المطلع الذي هو أقرب المطالع إلى الرأس، وكنوسها عبارة عن عودتها إليه، فعلى التفسير الأول يكون القسم واقعاً بالخمسة المتميزة، وعلى القول الذي ذكره أمير المؤمنين علي ﷺ يكون القسم واقعاً بجميع الكواكب سواء كانت من السيارات أو من الثوابت.

اعلم أنه ﷻ لما أقسم بهذا دل ذلك على اختصاصها بأسرار عجيبة وأحوال شريفة لا تصل العقول البشرية إليها على ما حققنا الكلام فيه في تفسير قوله تعالى في آخر سورة آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وممّا نزيده[3] هاهنا أنه تعالى ابتدأ من أعمال الصديقين بالذكر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ ثم أنهم يصلون من الذكر إلى الفكر وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

وهاهنا إشكال وهو أنه تعالى قال في الذاكرين: ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ فجعل الذكر المعتبر اللائق بهذا المقام ذكر الله لا ذكر غيره، ثم جعل نهاية هذا الذكر الفكر ويجب

---

(1) زيادة من (ب).
(2) زيادة من (ب).
(3) في (أ) يؤيده.

أن يكون هذا الفكر هو الفكر في الله لكنه لم يقل ذلك، بل جعل الفكر اللائق بهذا المقام الفكر في خلق السمٰوات والأرض وهذا اشتغال بغير الله، فكيف يعقل أن يجعل ذكر الله أولاً ومبدأ والفكر في غير الله غاية وكمالاً؟ والجواب أنا قد بيّنا في مناظرة موسى عليه السلام مع فرعون إن الفكر في الله ممتنع وأنه لا يمكن التوصل إلى جلال الله تعالى وعظمته إلا بالنظر في مخلوقاته ومبدعاته، وهذا متأيّد بقوله ﷺ: «**تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق**» ولما كان أشرف مخلوقاته المحسوسة هو عجائب السمٰوات والأرض كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ لا جرم جعل الغاية القصوى لسير أفكار المقربين والنهاية العظمى لغاية أنظارهم أن يتفكروا في عجائب خلق السمٰوات والأرض، ثم أنّا قد بينا فيما قبل أن الخاطر إذا وقع في هذا الموضوع كان الأولى ردعه عنها ومنعه عن الخوض فيها والاقتصار على الثناء المبهم والتعظيم المجمل كما في قوله في سورة الأعراف: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ثم قال بعده: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا هو الثناء ثم قال بعده: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ وهذا هو الدعاء، وقال في آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال بعده: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ وهذا هو الثناء ثم قال: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الدعاء، فهذه الدّرة التي وجدناها في قعر بحر القرآن هي أشرف المطالب وأعظم الرغائب، وما ذاك إلا بتوفيقه وهدايته وما هو إلّا من فضل ربّي ليبلوني أأشكر أم أكفر يا رب [السمٰوات والأرض وإلٰه العالمين] زدنا من فضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ فقال أهل اللغة:

عسعس من الأضداد، يقال: عسعس الليل إذا أدبر، وعسعس إذا أقبل، ثم منهم من قال: المراد هاهنا أقبل الليل لأن على هذا التقدير يكون القسم واقعاً بإقبال الليل وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وبإدباره ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ومنهم من يقول: المراد بقوله عسعس: أدبر، ثم قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إشارة إلى تكامل ضوء الصبح ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: 33-34].

أما قوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: إذا أسفر، وهو كقوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ وفي كيفية التشبيه قولان:

أحدهما: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على

«سبيل»[1] المجاز.

الثاني: أنه شبّه الليل المظلم بالمحزون المكروب الذي جلس بحيث لا يتحرك واجتمع الحزن في قلبه، فإذا تنفّس وجد راحة، فهاهنا لمّا طلع الصبح فكأنه تخلّص من ذلك الحزن فعبّر لذلك عنه بالتنفس.

واعلم أن في طلوع الشمس وغروبها أحوالاً عجيبة:

الأولى: إن طلوع الشمس شبيه بتكون العالم وتخليقه في أول وقت «كن»، وغروبها شبيه بتخريب العالم عند قيام القيامة وتقدير هذا التشبيه: إن الظلمة صفة عدميّة فهي شديدة المناسبة للعدم الأصلي المستمر من الأزل إلى وقت حدوث العالم، فكما أن في الليل تكون الظلمة مستقرة في جميع أقطار السمٰوات وأكناف الأرض، فكذلك كانت ظلمة العدم مستقرة مستمرة من الأزل إلى الأبد، فما كان هناك لوح ولا قلم ولا ظلمة ولا أنوار ولا سماء ولا أرض ولا طول ولا عرض ولا ذات ولا صفات، بل كان الله ولم يكن معه شيء، وكما أن في آخر الليل ينفلق بحر الظلمات بنهر من النور ويكون ذلك النور محفوظاً بالظلمات التي لا حدّ لها فكذلك ظهر في آخر الأزل نهر من نور إيجاد الله وتكوينه، وهذه المخلوقات متناهية والممكنات الباقية على العدم غير متناهية، والمتناهي بالنسبة إلى غير المتناهي قليل من كثير فهذه[2] الحالة شبيهة بنور الصبح في بحار ظلمات الليل.

إذا عرفت هذا ظهر أن طلوع النور مسبوق بتراكم ظلمات العدم وظهر أيضاً أن الأنوار الساطعة على الممكنات من الوجود أقل من الممكنات الباقية في ظلمات العدم، لا جرم قدّم الله تعالى ذكر الظلمات على النور وعبّر عن الظلمات بلفظ الجمع وعن النور بلفظ الفرد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، فتأمّل في هذه الأسرار فهذا حال تشبيه طلوع الصبح بطلوع صبح الإيجاد والتكوين من مشرق إحسان الله تعالى وفضله وعنايته.

الحالة الثانية: إن غروب الشمس في آخر النهار شديد الشبه بإماتة جميع

(1) زيادة من(ب).

(2) في (أ) هذه.

الإحياء وقت قيام القيامة وبقاء الخالق ونفاد الخلق الخامدين ليس بهم حسّ ولا حركة والليل يشبه بقاء الخلق فيما بين النفختين على العدم المحض ثم انتباه الخلق في وقت الصبح يشبه قيام الخلق عند البعث والنشر.

وتقرير هذا الكلام: هو أن النفخ في الصور يحصل ثلاث مرّات: نفخة الفزع قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: 87]، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة الإحياء قال تعالى: في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: 68]، فهذه الأحوال الثلاثة بعينها موجودة في الشمس وذلك لأن غروبها في الغرب يشبه نفخة الفزع، فإن الشمس إذا غربت في مغربها استولى الفزع والخوف على الحيوانات وتوجه كل منها إلى مأواه[1] ومسكنه، ثم إذا غرب الشفق بالكلية فذلك يشبه نفخة الصعق، وهناك يسكن كل حيوان وينام ويصير الكل خامداً جامداً كأنه صار ميتاً أو معدوماً إلا من شاء الله من الحيوانات التي لا تنام، وهذا الاستثناء المذكور في الآية حاصل هاهنا أيضاً، وأما طلوع الصبح فهو يشبه نفخة البعث والإحياء وذلك لأن الشمس إذا قربت من مشرقها فكأنها ينفخ[2] روح النور في أموات عالم الظلمات وهكذا أيضاً حال النفخة الثالثة لإسرافيل عليه السلام فإنه يصل من قوة تلك النفخة أثر الحياة إلى جميع الأموات.

واعلم أن مشاهدة هذه الأحوال الثلاثة في يوم البعث وزمن القيامة وذلك لأن الأرواح أعظم وأقوى من الأجسام، فإذاً لم يبعد أن يكون في عالم الأجسام من مخلوقات الله تعالى جسم بهذه التأثيرات الثلاثة، فأيّ بُعدٍ في أن يكون في عالم الأرواح من مخلوقات الله تعالى ما[3] يكون له هذه التأثيرات الثلاثة؟ وعند هذه التأثيرات الثلاثة وعند هذه الاعتبارات يظهر صدق أقاويل الأنبياء صلوات الله عليهم وسلّم فيما أخبروا عنه من معرفة المبدأ ومعرفة المعاد أما معرفة المبدأ[4] فهو أن عالم الأجسام مع فلكها وهو الشمس، وعالم الأرواح مع ملكها وهو إسرافيل كلهم

(1) في (أ) ما وراء.
(2) في الأصل: ينفخ فيها.
(3) في (أ) ملك.
(4) في (أ) المعاد وهو من الناسخ.

مسخّرون تحت سرادقات العزة وعتبات الإلٰهيّة.

وأما معرفة المعاد فهو قياس عالم الأرواح على عالم الأجسام فكما أن كواكب السماء مختلفة بالعظم والصغر والكبر والكمال والضعف، فكان الشمس كالسلطان لها بأسرها وهي مع وحدتها مستولية على جميع الكواكب والكل مقهورون تحت صولته مختفون تحت شروق نوره كذلك يجب أن يكون في عالم الأرواح شيء يكون كالسلطان لجميع الأرواح ويكون الكل تحت رايته ومقهورون تحت جلالته وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: 38]، وهو المسمّى بيمين رب العزة في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67]، ثم قد شهدت الفطرة السليمة أن الأرواح كالمبدأ والأجسام كالمظهر وكل واحد من الأرواح والأجسام مفتقر بعضها إلى البعض ومحتاج بعضها إلى البعض، واحتياج بعضها إلى البعض من أصدق الشواهد وأظهر الدلائل على افتقار الأرواح والأجساد والأنوار والظلمات بسبب زوجيتها إلى الفرد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وإليه الإشارة بقوله جلّ وعز: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: 49]، فثبت بما ذكرنا أن التأمل[1] في كيفية طلوع الشمس وغروبها مفتاح عظيم لانفتاح أنوار عالم القدس وتجلّي أضواء سرادقات الجلال، وبالله التوفيق.

(1) في (أ) التأويل.

الفصل التاسع: في كيفية الاستدلال باختلاف أحوال الليل[1] والنهار على وجود الصانع الحكيم

اعلم أن الآيات الدالة على هذا النوع من البحث نوعان:

أحدهما: الآيات الدالة على تعظيم أحوال الليل والنهار.

الثاني: الآيات المشتملة على حكمة خلق الليل والنهار.

أما النوع الأول فهو كثير في القرآن:

فأولها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال في آخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والمقصود من هذا الكلام في السورتين واحد وقال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

واعلم أن في نظم هذه الآيات الثلاث أسراراً عجيبة:

فالأول: أنه تعالى ابتدأ في هذه الآيات الثلاث بذكر السمٰوات والأرض ثم ذكر عقيبها أحوال الليل والنهار، والسبب في هذا الترتيب أن بتخليق السطح المقعّر من الفلك الأعظم ظهر المكان، وبتحريك السطح المحدّب منه ظهر الزمان، والمكان أقرب إلينا من الزمان. وقد عرفت أن التعليم المفيد هو الذي يبتدىء فيه من الأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى ولما كان المقصود من هذه الآيات ذكر الدلائل الدالة على جلال الله تعالى وقدسه لا جرم وقع الابتداء فيها بذكر السمٰوات والأرض

(1) في (أ) بأحوال اختلاف الليل.

لأن ذلك مشعر بالمكان ثم وقع الانتقال منها إلى ذكر الليل والنهار فإنه مشعر بالزمان، ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: 12]، فهذا إشارة إلى المكان وكل ما في المكان ملكه ثم قال: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣﴾ [الأنعام: 13]، وهو إشارة إلى الزمان وكل ما في الزمان ملكه، فالمكان والمكانيّات والزمان والزمانيات شاهدة معترفة دالة على كونه ﷻ منزَّهاً عن علائق المكان ولَوَاحق الزمان ومناسبات الحدوث والإمكان ومشابهات الأفلاك والأركان، ومن نظائره أيضاً قوله تعالى في صفة السماء: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: 28] وهو إشارة إلى المكان ثم قال: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 29]، وهو إشارة إلى الزمان.

النوع الثاني: من لطائف هذه الآية أنه تعالى جعل هذه الدلائل في سورة البقرة آيات لقوم يعقلون، وجعلها في سورة آل عمران آيات لأولي الألباب، وفي سورة الأعراف انتقل من الغيبة إلى الحضور فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والسبب في هذا الترتيب على ما يخطر بالبال ـ والله أعلم بأسرار كلامه ـ إن درجات[1] المحققين ثلاثة:

الأولى: الذين يستدلون بأحوال السمٰوات والأرض على وجود الصانع القادر المختار وإليه الإشارة في سورة البقرة بقوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثانيها: الذين صاروا مكاشفين بكيفية دلائل كل واحد من أجزاء الأرضين والسمٰوات على وجود الصانع وحكمته وعدله وعلمه، وذلك لأنا بيّنا أن لكل واحد من أجزاء الأرضين والسمٰوات دلالة لا نهاية لها على كمال قدرة الله وحكمته، فإذا صار الإنسان مكاشفاً بأحوال تلك الدلالات حتى يصير عقله غرقاً في بحار تلك الدلائل، فهذا الإنسان قد ترقى من ظاهر عالم العقل إلى أوج عالم الأسرار والألباب وإليه الإشارة في سورة آل عمران بقوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثالثها: أن الإنسان في المقام الأول والثاني كان مشغولاً بمطالعة الدلائل وبقدر اشتغال العقل بمطالعة الدلائل يحصل الحرمان عن الاستغراق في نور جلال الله، فإذا كملت درجة الإنسان في مقام الاستدلال نودي من حضرة الصمدية وسرادقات الجلال

(1) في (أ) جهات.

والكمال والكبرياء ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: 12]، فإن كل دليل فهو مركب من مقدمتين لا محالة لا يزيد ولا ينقص، وهاتان المقدمتان كالنعلين في قدمي العقل بهما يتمكن العقل من السير من الخلق إلى الخالق ومن الممكن إلى الواجب فإذا وصل إلى بيداء الصمدية وبساط جلال الإلٰهيّة يؤمر بخلع هذين النعلين، فإذا قال العبد: ولِمَ أخلعهما؟ قيل له: لأنك بالوادي المقدس طوى، فمن وصل إلى الوحدة كيف يلتفت إلى الكثرة؟ ومن وجد المدلول كيف يبقى مشغولاً بالدليل؟ وحينئذ يرتقي من مقام الغيبة إلى الحضور والشهود فيصير مخاطباً من الحق بالحق فيسمع من غير واسطة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وسمعت بعض المحققين يقول: إن أولى الدرجات أن يقول العبد: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده وفي وسط السير يقول: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه، وفي آخر الدرجة يقول: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله، وذلك لأنه في المقام الأول مستدل بغير الله على الله، وفي المقام الثاني مستدل بالله على الله، وفي المقام الآخر مستدل بالله على غير الله وهذه المراتب الثلاث مطابقة لهذه الآيات الثلاث.

واعلم أن دلالة الليل والنهار على وجود الصانع الحكيم من وجوه:

الأول: كون الليل والنهار مختلفين كما في هذه الآيات وقال في سورة يونس: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 6].

وقال في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: 61]، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: 62]، وقال في الزمر: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: 5]، قال المفسرون: هذا الاختلاف يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه افتعال من قولهم: خلفه يخلفه إذا ذهب الأول وجاء الثاني، فاختلاف الليل والنهار عبارة عن تعاقبهما في المجيء والذهاب ومن فلان يختلف إلى فلان إذا كان ذاهباً إليه ويجيء من عنده فذهابه يخلف مجيئه ومجيئه [يخلف][1] ذهابه

(1) لا يوجد في (أ).

وكل شيء يجيء بعد شيء آخر فهو خلفه وبهذا فسّر قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: 62].

والثاني: المراد اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر والزيادة والنقصان، وعندي فيه وجه ثالث وهو أن الليل والنهار كما يختلفان بالطول والقصر في الأزمنة فهما يختلفان أيضاً في الأمكنة، فإن الأصح أن الأرض كرة وإذا كان كذلك فهذه الساعة التي أشير إليها هي هاهنا وقت الصبح وفي موضع آخر وقت طلوع الشمس، وفي وقت آخر وقت الظهر، وفي وقت آخر وقت العصر وفي موضع وقت المغرب، وفي موضع آخر نصف الليل، وعلى هذا القياس جميع الأحوال المختلفة في الليل والنهار حاصل في هذه الساعة الواحدة بحسب كل واحد من بقاع الأرض. هذا إذا اعتبرنا البلاد المختلفة في الطول، أما البلاد المختلفة في العرض فكل بلد يكون عرضه الشمالي أكثر كانت الأيام الصيفية أطول ولياليه الصيفية أقصر وأيامه ولياليه الشتوية بالضد، فهذه هي الأحوال المختلفة في الأيام والليالي بحسب اختلاف أطوال البلدان وعروضها[1] وهذا أيضاً هو المراد من تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل.

الوجه الثاني: من وجوه دلالة الليل والنهار على وجود الصانع الحكيم قوله تعالى في القصص: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 70]، وأما كلمة هو [الله] فسيجيء تفسيرها في باب أسماء الله تعالى الحسنى، وأما كلمة لا إله إلاّ هو فقد تقدّم تفسيرها، ثم أنه أردف ذلك بصفات ثلاثة:

الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ففيه أبحاث ثلاثة:

أحدها: بيان حقيقة الحمد والفرق بينه وبين المدح والشكر.

ثانيها: أن قوله: له الحمد دالّ على أن غيره لا يستحق الحمد.

ثالثها: إن أهل الآخرة مشتغلون بالحمد كما في هذه الآية وكما في

(1) في (أ) أطول البلدان وعرضها.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34]، والحمد لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: 35] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وتحقيق الكلام في هذه المباحث سيجيء إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الفاتحة.

الصفة الثانية: قوله جل وعزّ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ والمعنى أنه لا حكم في الدنيا والآخرة إلّا له، أما في الدنيا فلأن حكم أحد سواه لا ينفذ على الغير إلّا بواسطة حكمه فلولا أمر الله وحكمه لما نفذ على العبد حكم سيده وعلى الزوجة حكم زوجها وعلى الولد حكم والده وعلى الرعية حكم السلطان وعلى الأمة حكم الرسول ﷺ ونظيره قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: 62]، وإذا تأملت كما ينبغي علمت أن الحق هو الحاكم في الحقيقة في الآخرة فلا شك أنه تعالى له الحكم وله القضاء كما قال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: 19].

الصفة الثالثة: قوله عز وجل: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني مرجع كل أحد إلى حكمه وقضائه لا تصرُّف لأحد في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ إلى آخره.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه المستحق للحمد أتبع هذا الكلام ببعض ما به يستحق الحمد وهو إيجاد الليل والنهار فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؟ وقال في الآية الثانية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: 71 ـ 72].

فاعلم أن وجه الاستدلال بهذا المعنى على الصانع من وجوه:

الأول: المراد أنه لا بد من النهار ليحصل فيه الضوء فتتيسّر الحركة عند الإبصار لطلب المعاش وسواه، ولا بد من الليل لتحصل الظلمة فيه فيحصل السكون بعد ذلك الانتشار لطلب المعاش ليزول التعب. وأما أنه لا بد من الحركة فلأن الإنسان محتاج إلى تحصيل المطعوم والملبوس وإعداد المسكن وسائر المصالح وكل

ذلك لا يتهيأ إلا بالسعي والجد في التحصيل، وذلك لا يمكن إلا في ضوء النهار، وأما أنه لا بد من السكون فلأن الإنسان إذا سعى وتحرك تعب فاحتاج إلى النوم والراحة من التعب ليزول ذلك الإعياء والتعب.

الوجه الثاني: في كيفية الاستدلال أن بتقدير أن يسكن الله الشمس في موضع معين في الفلك ويوقف الفلك عن الحركة فحينئذ يدوم النهار في ذلك الجانب من الأرض وتعظم السخونة فيه، ويدوم الليل في الجانب الآخر من الأرض وتعظم البرودة فيه وحينئذ يخرج كل واحد من جوانب الأرض عن صلاحية العمارة وسكنى الحيوانات.

الوجه الثالث: أن بتقدير تعاقب الليل والنهار فلو كان الليل أطول مما هو الآن أو كان النهار أطول مما هو الآن لبطلت المنافع أيضاً، ألا ترى أن تحت القطبين يكون نصف السنة نهاراً ونصفها ليلاً فلا جرم هناك لا يصلح لتولد الحيوانات ولا لتولد النبات، فظهر أن المنافع لا تحصل إلا بتعاقب الليل والنهار ومع التعاقب لا بد أن لا يكون الليل في غاية الطول وأن لا يكون النهار في غاية الطول، ومتى حصل التعاقب بين الليل والنهار وكان لكل واحد منهما مدة معتدلة ومقدار معتدل حصلت المنافع وصلحت الأمكنة والأزمنة لسكنى الحيوانات.

الوجه الرابع: أن كل واحد من الليل والنهار يصير بمجيء الآخر مغلوباً، فلولا قهر قاهر وتدبير مدبّر لامتنع أن يصير الغالب مغلوباً والمغلوب غالباً وهذا يدل على أن لهما محدثاً واحداً، وفيه أيضاً دلالة على البعث والنشور لأن الليل يأتي على النهار فيتغلب حتى لا يبقى من أثر النهار شيء ثم النهار يأتي على الليل فينقله حتى لا يبقى من أثر الليل شيء، ثم إنها بقيا على هذا التعاقب دائمًا، فلما قدر المدبر سبحانه على إعادة الذي ذهب وبطل دل ذلك على أنه قادر على إعادة من أماته وأفناه وإن لم يبق له أثر.

الوجه الخامس: قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ دليل على فساد قول «الثنوية» أن فاعل الخير غير فاعل الشرّ لأن الأمر لو كان كما ذكر لما كان الإلٰه الآتي بالنور هو الإلٰه الآتي بالظلمة، فإذا غلب إلٰه النور إلٰه الظلمة فالغالب لا يصير مغلوباً فوجب أن لا يزول النهار ولا يحصل الليل، فلما لم يكن كذلك علمنا أن الليل والنهار والظلام والنور بتدبير مدبّر واحد وبتقدير مقدر واحد وهو الله رب العالم.

بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: ما معنى السرمد في اللغة؟

الجواب: أن السرمد هو الدائم المتصل مأخوذ من السرد وهو المتابعة[1]، ومنه قوله ﷺ في الأشهر الحرم: «**ثلاثة سرد وواحد فرد**».

السؤال الثاني: هلاّ قال: «يأتيكم بنهار تبصرون» كما قال: «بليل تسكنون فيه»؟

الجواب: لأن منافع الليل هي السكون والنوم والراحة أما منافع النهار فكثيرة يطول تعدادها.

السؤال الثالث: لِمَ قال في الليل: «أفلا تسمعون» وفي النهار: «أفلا تبصرون»؟

الجواب: لأن الليل عبارة عن الظلمة وهي غير مرئية لا جرم قال في بقائها: أفلا تسمعون؟ والنهار عبارة عن الضوء وهو مرئيّ فلهذا قال: أفلا تبصرون. وقال الكلبي: قوله: أفلا تسمعون معناه: أفلا تطيعون من يفعل ذلك؟ وقوله: أفلا تبصرون معناه: أفلا تبصرون[2] ما أنتم عليه من الخطأ والضلال؟

النوع الثالث: من وجوه دلالة الليل والنهار على الصانع الحكيم القادر في آخر هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: 72]، اعلم أن تقرير هذا الوجه أن الليل والنهار ضدان والضدان يكون كل واحد منهما مبطلاً للآخر ولمنفعته، وأما الليل والنهار فإنه لا يحصل الانتفاع بهما إلا عند حصول الآخر فقلب طبيعة الضدين من المقاومة إلى المعاونة ممّا لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى: وإنما قلنا لا تحصل المنفعة إلا بتعاقبهما وذلك لأنه لو دامت الظلمة دام النوم وتعذرت الحركات فتهلك الحيوانات، ولو دام الضوء دامت السخونة ولم يحصل النوم ويستولي الإعياء والتعب على الحيوانات فيموت الكل، فيظهر أن الانتفاع بأحدهما لا يمكن إلا عند تعاقبهما، ومن المعلوم أن قلب طبيعة الضدين من المعارضة إلى المعاونة لا يقدر عليه إلا الله ثم أنه تعالى بيّن في هذه الآية أن الازدواج بين الليل والنهار لأغراض

(1) في (أ) المبالغة.
(2) في (أ) تتفكرون.

ثلاثة ليسكنوا في الليل وليبتغوا من فضل الله في النهار [و] ليشتغلوا بالشكر على هاتين المنفعتين.

النوع الرابع: من وجوه دلالة الليل والنهار على الصانع الحكيم قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: 47]، وقال في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبإ: 9 ـ 10].

أما قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فقد طعن فيه بعض الملحدة ـ لعنهم الله ـ فقال: السبات هو النوم فيصير التقدير: وجعلنا نومكم نوماً، والجواب عنه أن السبت في أصل اللغة هو القطع يقال: سبت الرجل رأسه يسبته سباتاً[1]، وعند هذا يحتمل الآية وجهين:

الأول: أن يكون المعنى: وجعلنا نومكم منقطعاً لا دائماً فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء وأما دوامه فهو من أضرّ الأشياء، فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا جرم ذكره الله في معرض الإنعام.

الثاني: أن الإنسان إذا تعب ثم نام زال عنه التعب بالنوم فسُميت تلك الإزالة سبتاً وقطعاً هذا هو المراد من قول ابن قتيبة: «وجعلنا نومكم سباتاً» أي راحةً، وليس غرضه منه أن السبات اسم للراحة بل المقصود أن النوم يقطع التعب ويزيله فحينئذ تحصل الراحة.

الثالث: قال المبرد: وجعلنا نومكم سباتاً، أي: جعلناه نوماً خفيفاً يمكنكم دفعه وقطعه، تقول العرب: رجل مسبوت إذا كان النوم يغالبه وهو يغالب النوم، كأنه قيل: وجعلنا نومكم نوماً لطيفاً يمكنكم دفعه وما جعلناه غشياً مستولياً عليكم فإن ذلك من الأمراض الشديدة، أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ فقال القفّال: أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان ويتغطى به فيكون ذلك مغطياً له فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته وتغطيهم جعل لباساً لهم والمراد كون الليل ساتراً لهم. وأما وجه النعمة في ذلك فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو أو

---

(1) في (أ) سبتا.

بياتاً [أو] إخفاء ما لا يحب الإنسان اطلاع أحد عليه، قال المتنبي:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبّر أنّ المانويّة تكذبُ[1]

وأيضاً وكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جمالاً وتتكامل قوته، فبسبب النوم يندفع عنه أذى الحرّ والبرد ويندفع عنه أذى التعب الجسماني وأذى الأفكار الموحشة والنفسانية فلهذا السبب فإن المريض إذا نام في الليل وجد الخفة العظيمة. أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فاعلم أن في المعاش وجهين:

أحدهما: أنه مصدر يقال: عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة وعيشة، وعلى هذا التقدير لا بد فيه من إضمار والمعنى: وجعلنا النهار وقت معاش.

الثاني: أن يكون المعاش مفعلاً وظرفاً للتعايش وعلى هذا لا حاجة إلى الإضمار ومعنى كون النهار معاشاً أن الخلق إنما يمكنهم التقلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار لا في الليل.

النوع الخامس: من وجوه دلالة الليل والنهار على وجود الصانع قوله تعالى في [يس]: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾ [يس: 37]، واعلم أن قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ إشارة إلى الليل وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ إشارة إلى النهار، وفي قوله: «تجري لمستقر لها» عدة أقوال: أصحها تجري وتتحرك لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا، أي لا تزال تجري حتى تنتهي إلى الوقت الذي تنقضي الدنيا فيه وفي ذلك الوقت تقف وتستقر وتترك الحركة.

ولنذكر ها هنا أن النهار أفضل أم الليل وفي ترجيح كل واحد من الطرفين وجوه أما الذين فضّلوا النور على الظلمة فقد تمسّكوا بوجوه[2].

---

(1) من قصيدة له يمدح كافوراً، وكان قد حمل إليه ستمئة دينار. المانوية: قوم ينسبون إلى «ماني» وهو رجل يقول: الخير من النهار والشر من الليل وانتحل هذا المذهب، فرد عليه المتنبي فقال: كم نعمة للظلمة عندي، تبين أن هؤلاء المانوية الذين نسبوا إلى الظلمة الشر كاذبون وليس الأمر على ما قالوه» التبيان في شرح الديوان ج 1/ 179.

(2) وجدنا بهامش الأصل ما يلي: «لعل الناسخ ترك هذه الوجوه أو ذكر في نسخة أخرى»، وجاء في هامش (ب) قول الناسخ: «هذا البياض هكذا في الأصل» وقد ترك ناسخ هذه النسخة صفحة خالية هنا.

الفصل العاشر:
في مباحث متفرقة في هذا الباب

النوع الأول في المباحث المتفرعة على كون القمر هلالًا:

اعلم أن الله ﷻ فرّع على كون القمر هلالاً أبحاثاً تتعلق بعلم الأصول والتوحيد وأبحاثاً تتعلق بعلم الفروع والتكليف:

أما ما يتعلق بعلم الأصول فهو قوله تعالى في سورة يٓس: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: 40]، ونظيره قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 16-18]، فقوله: ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي إذا اجتمع، فاعلم أن أصل الاتساق الاجتماع يقال: وسقته فاتّسق كما يقال: وصلته فاتّصل، أي جمعته فاجتمع ويقال: أمور فلان متسقة: أي مجتمعة وتكامل على الصلاح كما يقال: منتظمة، قال ابن عباس: إذا اتسق أي اجتمع واستوى وتكامل وتمَّ واستدار وذلك ليلة ثلاث عشرة.

وأما ما يتعلق بعلم الفروع فهو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، فلنتكلم في شرح هذين الأصلين:

أما الآية الأولى فاعلم أنه ﷻ جعل الزمان مقدراً من أربعة أوجه: السنة ـ والشهر ـ واليوم ـ والساعة.

أما السَّنة فهي عبارة عن الزمان الحاصل من حركة الشمس من نقطة معينة من الفلك بحركتها الخاصة على خلاف الحركة اليومية إلى أن تعود إلى تلك النقطة بعينها، والقوم اصطلحوا على جعل تلك[1] النقطة هي نقطة الاعتدال الربيعي وهي أول الحمل.

(1) زيادة من (ب).

وأما الشهر فهو عبارة عن حركة القمر عن نقطة معينة من فلكه الخاص به إلى أن يعود إلى تلك النقطة، ولما كان أشهر أحوال القمر وضعه[1] مع الشمس وأشهر أوضاعه من الشمس هو الهلال الغربي مع أن القمر في هذا الوقت يشبه الموجود بعد العدم والمولود الخارج من الظلم لا جرم جعلوا هذا الوقت مبدأ للشهر. وأما اليوم بليلته فهو عبارة عن مفارقة نقطة من دائرة معتدل النهار نقطة من دائرة الأفق ونقطة من دائرة نصف النهار وعودها إليه فالزمان المقدر بهذا المقدار عبارة عن اليوم بليلته.

ثم إن المنجمين اصطلحوا على تعيين دائرة نصف النهار مبدأ ليوم بليلته وأما أكثر الأمم فإنهم جعلوا مبادىء الأيام بلياليها من مفارقة الشمس أفق المشرق وعودها إليه من الغداة. واحتج من نصر مذهبهم بأن الشمس عند طلوعها كالموجود بعد العدم فجعله أولاً أولى وعلى هذا القول[2] فزمان الليل عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض وفي شريعة الإسلام يفتتحون النهار من وقت طلوع الفجر في وجوب الصلاة والصوم وغيرهما من الأحكام، وعند المنجمين مدة الصوم في الشرع هي زمان النهار كله مع زيادة في زمان الليل معلومة المقدار محدودة المبدأ.

أما الساعة فهي على قسمين: مستوية ومعوجّة:

فالمستوية: جزء من أربعة وعشرين جزء من يوم وليلة.

والمعوجة: جزء من اثني عشر جزء من يوم وليلة. فهذا هو الكلام المختصر في تعريف السنة والشهر واليوم والساعة.

إذا عرفت هذا فنقول: أما السنة والشهر واليوم والساعة فهي عبارة عن مدة دورة[3] الشمس فيحدث بسببها الفصول الأربعة، وذلك لأن الشمس إذا حصلت في الحمل فإذا تحركت من هذا الموضع إلى جانب الشمال أخذ الهواء في جانب الشمال شيئاً من السخونة لقربها من مسامتة الرؤوس ويتواتر الأسخان إلى أن تصل إلى أول السرطان وحينئذ يشتد الحرّ ما دام في السرطان، والأسد لقربها من سمت الرؤوس ثم ينكسر قليلاً قليلاً إلى أن يصل إلى الميزان، وحينئذ يطيب الهواء ويعتدل ثم يأخذ

(1) في الأصل: وصفية.
(2) في (أ) التقدير.
(3) في الأصل: مدة.

الحرّ في النقصان والبرد في الزيادة، ولا يزال يزداد البرد إلى أن تصل الشمس إلى أول الجدي وحينئذٍ يشتد البرد وما دامت في الجدي والدلو فالبرد يكون في غاية الشدة، إلى أن ينتهي إلى أول الحمل فحينئذ يطيب الهواء ويعتدل وعادت الشمس إلى مبدأ حركتها وقت أول[1] السنة وحصلت الفصول الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء ومنافع الأربعة مشهورة في الكتب.

وأما الشهر فهو عبارة عن دورة القمر في فلكه الخاص، فرغم أن نوره مستفاد من الشمس وأبداً يكون أحد نصفيه مضيئاً بالتمام إلا أنه عند الاجتماع يكون نصفه المضيء هو النصف الفوقاني فلا جرم نحن لا نرى في تلك الحالة من نوره شيئاً، وعند الاستقبال يكون نصفه المضيء مواجهاً لنا فلا جرم نراه مستنيراً بالتمام، وكلما كان القمر أقرب إلى الشمس كان المرئي من نصفه المضيء أقل وكلما كان أبعد كان المرئي من نصفه المضيء أكثر، ثم إنه من وقت الاجتماع إلى وقت الاستقبال يكون كل ليلة أقرب إلى الشمس، فلا جرم نرى كل ليلة ضوءه أقل ولا يزال يقلّ حتى يعود كالعرجون القديم، فهذا ما قاله أصحاب النجوم.

وأما الأصوليون فيقولون: القمر جسم والشمس جسم والأجسام كلها متماثلة في الجسمية، والأشياء المتساوية في تمام الماهية يمتنع اختلافها في اللوازم، فإذاً حصول الضوء في جرم الشمس والقمر أمر جائز الوجود لا يمتنع حصوله ولا يمتنع عدمه، وما كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه إلا بترجيح الفاعل المختار، وكلما كان فعلاً للفاعل المختار فإن ذلك الفاعل يكون قادراً على إيجاده وعلى إعدامه وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى إسناد هذه الاختلافات الحاصلة في نور القمر إلى قربها وبعدها عن الشمس، بل الحق أن حصول النور في جرم الشمس إنما كان بسبب إيجاد القادر المختار، وإذا كان كذلك كان الأمر له فهو قادر على إزالة النور عن جرمه، فحينئذ تكون صيرورة الشمس مظلمة في ذاتها أمراً جائزاً وحينئذ ينفتح باب عظيم في الدين وهو الإيمان بصحة كل ما جاء في صفات الأفلاك والكواكب يوم القيامة نحو قوله جل وعز: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 1-2] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: 1-2] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1] ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11].

(1) زيادة من (ب).

وإذا عرفت هذا ظهر دلالة اختلاف أحوال القمر في الضوء والنور على الفاعل المختار الحكيم ﷻ، وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾؟

الجواب ـ والله أعلم ـ أن معناه: والقمر قدرنا[1] مسيره منازل ،أو له منازل على حذف الجار، أو ذا منازل على حذف المضاف.

السؤال الثاني: ما العُرجون؟

الجواب ـ وبالله التوفيق ـ: أن العرجون أصل العزق، قال الزجاج: هو مقلوب من الانعراج وهو الانعطاف فإذا قَدِمَ عزق وانحنى واصفر يُشبَّه الهلال به لدقته وانحنائه وتقوّسه فهذا ما يتعلق بعلم الأصول من مباحث الهلال.

أما ما يتعلق بعلم الفروع فهو أن لقائل **يقول**: خالق العالم ومدبّره لِمَ خصّص جرم القمر بهذا الاختلاف؟

فنقول: لعلماء الإسلام في هذا المقام جوابان:

أحدهما أن يقال: أن فاعلية الله لا يمكن تعليلها بغرض ومصلحة ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه إن فعل فعلاً لغرض فإن قدر على تحصيل ذلك الغرض دون تلك الواسطة كان فعل تلك الواسطة عبثاً وإن لم يقدر فهو عاجز.

الثاني: أن كل[2] من فعل فعلاً لغرض فإن كان وجود ذلك الغرض أولى لذلك الفاعل[3] من لا وجوده كان ذلك الفاعل ناقصاً بذاته مستكملاً لغيره وهو في حق الله تعالى محال وإن لم يكن أولى لم يكن غرضاً.

الثالث: أنه لو كان فعله معللاً بغرض فذلك الغرض إن كان محدثاً افتقر إحداثه إلى غرض آخر، وإن كان قديماً لزم من قِدمه قِدم الفعل وذلك محال فلا جرم

---

(1) في (أ) قدرناه.
(2) زيادة من (ب).
(3) في (أ) الفعل.

قالوا: كل شيء صنيعه ولا علة لصنعه ولا يجوز تعليل أفعال الله ﷻ وأحكامه ألبتة فلا يسأل عم يفعل وهم يُسألون.

الجواب الثاني: قول من يقول: لا بد من أفعال الله تعالى وأحكامه من رعاية المصالح والحكم، والقائلون بهذا القول سلموا أن العقول البشرية قاصرة في أكثر الأمر عن الوصول إلى أسرار حكمة الله في ملكه وملكوته إلا أن الله تعالى أخبر عن الحكمة في اختلاف ضوء القمر في آيات منها:

قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: 189].

ومنها قوله في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5].

ومنها قوله: في سورة بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]، وقال في سورة يس: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وشرح هذا المعنى أن نقول: أن تقدير الزمان بالشهور فيه منافع بعضها يتصل بالدين وبعضها يتصل بالدنيا، أما ما يتصل منها: بالدين فكثيرة منها الصوم، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: 185]، ومنها: الحج، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: 197]، ومنها عدة المتوفي عنها زوجها. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]، ومنها مدة الحمل والرضاع قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15]، ومنها النذور التي تتعلق بالأوقات كفضائل الصوم في أيام لا سبيل إلى معرفتها إلّا بالأهلّة.

وأما ما تتصل منها بالدنيا فهي كالمداينات والإيجارات ومدة الحمل والرضاع وغيرها وكل ذلك لا يسهل ضبط أوقاتها إلا عند وقوع الاختلاف في ضوء القمر.

وتحقيق الكلام فيه أن المصنّف الذي يراعي الترتيب يقسم كتابه إلى أنواع ثم

كل نوع منه إلى أبواب، ثم كل باب منه إلى فصول حتى يكون الاطلاع على مضمون ذلك الكتاب أسهل وأيسر، وجملة هذا العالم تصنيف الله تعالى وهو سبحانه يراعي التسهيل على المكلفين فقسم جملة الزمان إلى السنين ثم قسم كل سنة إلى اثني عشر شهراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: 36] ثم قسم كل شهر إلى أيام، ثم قسم كل يوم إلى الساعات ثم قسم كل ساعة إلى الأنفاس ثم قسَّم كل نفس إلى لمحات كما قال تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40]، ثم قسم كل لمحة إلى الأجزاء التي لا تتجزأ والأوقات التي لا تنقسم ولما ظهر أن اختلاف أحوال القمر معونة عظيمة في تعيين الأوقات وتحديدها من الوجوه التي ذكرناها لا جرم نبّه على هذه النعمة بقوله:

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:189] لأن تقدير جميع تلك المنافع يفضي إلى الإطناب والاقتصار على البعض دون البعض إهمال للبعض فلم يبق طريق إلا التنبيه على الكل بطريق الإيجاز.

ومن منافع اختلاف ضوء القمر أنه لو لم يحصل هذا الاختلاف لتأكدت شبهة الفلاسفة في قولهم: إن الأجرام الفلكية لا يمكن تطرق التغيير إلى أحوالها فهو ﷻ بحكمته القاهرة أبقى الشمس على حالة واحدة، وأظهر الاختلاف في أحوال القمر من وجهين.

أحدهما: المحو الذي في وجهه فإن بعض أجزائه مخالف للبعض في كيفية النور.

الثاني: أن مقدار ضوئه يختلف في كل يوم ثم جعل هذين النوعين من الاختلاف دليلاً على كون هذه الأجرام قابلة للاختلاف والتغيّر، حتى يدل ذلك على افتقار الشمس والقمر والنجوم والأفلاك والعناصر إلى مقدر قاهر حكيم ﷻ.

النوع الثاني في المباحث المتعلقة بالبروج:

قال سبحانه وتعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الحجر: 16]، وقال في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: 61]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1]، اعلم أنه ﷻ كما ذكر البروج ذكر المنازل أيضاً فقال في سورة يونس: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وقال في يٓس: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ﴾.

والكلام في المباحث المتعلقة بالبروج والمنازل طويل إلّا أنّا نذكر هاهنا من تلك طرفاً، فنقول: **أما البروج ففيها مباحث:**

الأول: وهو أننا بيّنا أن مصالح هذا العالم لا ينتظم إلا بالفصول الأربعة المتعاقبة والحق ﷻ قسّم الفُلك بأربعة أقسام:

الربع الأول: الذي متى كانت الشمس فيه كان الزمان ربيعاً.

الربع الثاني: الذي متى حصلت الشمس فيه كان الزمان صيفاً.

الربع الثالث: الذي متى حصلت الشمس فيه كان الزمان خريفاً.

الربع الرابع: الذي متى حصلت الشمس فيه كان الزمان شتاءً.

فقسّم الفُلك إلى هذه الأرباع الأربعة لتحدث الفصول الأربعة في الأرض، ثم إنه ﷻ قسم كل فصل إلى ثلاثة أقسام: ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، والحكمة فيه أن الانتقال من أحد الضدين إلى الضد الآخر يوجب الأمراض والأسقام الشديدة، فلما كان الشتاء بارداً جداً جعل أول الربيع ضعيفاً في الحرارة حتى ينتقل الإنسان من البرد الشديد إلى الحر الضعيف فلا تصير الطبيعة مقهورة، ثم إن ذلك الحر لا يزال يتزايد ويقوى حتى يبلغ إلى كمال الحر اللائق بالربيع فحينئذ يقع الانتقال منه إلى الحر الشديد الذي هو في الصيف فلا تصير طبائع الأمزجة والأبدان مقهورة، فأول الربيع ضعيف الحر فإنه مجاور للشتاء وآخر الربيع قوي الحر لأنه مجاور للصيف وبهذا التدبير يحصل الانتقال من ضد فلا تحصل الأمراض والآلام بسبب ذلك فلهذا المعنى اقتضت الحكمة الإلٰهية أن يقسم كل ربع من أرباع الفلك بثلاثة أقسام: أحدها أن يكون مبدءاً لذلك الفصل، والثاني يكون وسطاً له، والثالث يكون كمالاً له فصار لأجل هذا الترتيب الفلك مقسوماً باثني عشر بُرجاً ثم إنه تعالى سيّر الشمس في هذه البروج كما شاء فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61] فلا جرم صيّر السنة اثني عشر شهراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: 36].

الوجه الثاني: من عجائب البروج: اعلم أن الله تعالى خلق العالم ثلاثة: العالم الأصغر وهو بدن الإنسان، والعالم الأوسط وهو العالم السفلي بما فيه من العناصر الأربعة، والعالم العلوي وهو عالم السمٰوات والكواكب.

أما العالم الأوسط فخلق فيها أجراماً أربعة: الأرض والماء والهواء والنار، وأثقل الأجسام هو الأرض فلا جرم جعل الأرض تحت جميع الطبائع الأربعة والماء أقل ثقلاً منه فجعل الماء محيطاً بالأرض، ثم الهواء خفيف فجعل الهواء محيطاً بالماء، ثم النار أخف الأجسام العنصرية فجعل النار محيطة بجميع العناصر الأربعة فهذا الترتيب المحكم والوصف المتقن، ثم إنه ﷺ قلب هذا الترتيب في تخليق العالم الأصغر وجعل الأرض فوق الكل والنار من تحت الكل، والدليل عليه أن يافوخ الإنسان فوق جميع أعضائه وهو عظم والعظم بارد يابس وطبعه طبع الأرض فجعل الأرض فوق جميع الأجزاء والأعضاء ثم جعل الهواء تحت الأرض فإن النفس هواء ومنفذ النفس هو الأنف وهو تحت اليافوخ، ثم جعل الماء تحت الهواء لأن معدن الماء هو الفم والفم تحت الأنف، ثم جعل النار تحت الهواء لأن معدن النار الحرارة والغريزية وهو القلب والقلب تحت تلك الأعضاء، ففي العالم الأوسط جعل الأرض تحت الكل والنار فوق الكل، وفي العالم الأصغر قلب هذا الترتيب فجعل الأرض فوق الكل والنار تحت الكل ليظهر للعقلاء أن السبب في حصول هذا الترتيب تخليق القادر المختار وتكوينه لا تأثير الطبيعة والخاصية، وأما في العالم الأكبر فقد رتّب هذه الطبائع على خلاف ما وقع عليه ترتيبها في العالم الأصغر وفي العالم الأوسط وذلك لأن الحمل برج ناري ثم يجاوره الثور وهو أرضي ثم يجاوره الجوزاء وهو هوائي ثم يجاوره السرطان وهو مائي، فوقع الابتداء بالنارية والانتهاء بالمائية، واعلم أن الحكمة في وقوع هذه الطبائع الأربع في كل واحد من هذه العوالم الثلاث على ترتيب آخر مخالف لترتيب غيره ليكون ذلك شاهداً بأن الطبائع معزولة والخواص باطلة لا تأثير إلا لقدرة الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكُن له كفواً أحد.

الوجه الثالث: أن ترتيب العناصر الأربعة في العالم الأسفل وقع بحيث يكون كل متجاورين منها فإنهما تتشاركان في كيفية وتتباينان بأخرى مثل الأرض والماء يشتركان في البرد ويختلفان في الرطوبة، والهواء والنار يشتركان في الحرارة ويختلفان في الرطوبة واليبوسة قالوا: والسبب فيه أن لا يتجاور[1] ضدان من كل الوجوه، ثم أن هذه الدقيقة صارت متروكة في ترتيب الطبائع في العالم الأكبر وذلك لأن هناك قد تجاورت البروج المتضادة ألا ترى أن الحوت والحمل متضادان، لأن الحوت بارد

---

(1) في (أ) يتجاور.

رطب والحمل حارّ يابس وهما متجاوران، وكذلك الثور والجوزاء متضادان لأن الثور بارد يابس والجوزاء حار رطب وهما متجاوران، وكذا السرطان والأسد وكذا السنبلة والميزان وكذا العقرب والقوس وكذا الجدي والدلو، كل واحد من هذين البرجين متضادان لكلتي الكيفيتين ثم هما متجاوران وهذا من أقوى الدلائل على أن هذه البروج ليس لأجل مشاكلة طبائعها ومجانسة ذواتها بل ذلك لإيجاد القادر المختار والصانع الحكيم جل جلاله وتقدست أسماؤه.

الوجه الرابع: أن الشمس في غاية السخونة ومذهبكم أن الحمل برج حار يابس ناري والسرطان برج بارد رطب مائي فلو كانت هذه التأثيرات حاصلة بسبب الطبيعة لكان إذا حصلت الشمس في الحمل فقد حصل كوكب [حار جداً][1] في برج حار جداً فوجب أن تقوى السخونة جداً، وإذا حصلت الشمس في السرطان فقد حصل كوكب حار جداً في برج بارد جداً فوجب أن تنكسر حره ويضعف، لكن ليس الأمر كذلك فإنه حين تحصل الشمس في الحمل يكون الحر ضعيفاً وحين تحصل في السرطان يكون الحر قوياً فعلمنا أن قوة الحر ليس لتأثير الأنجم والبروج بل لتقدير المقدر وتدبير المدبر الصانع الحكيم، **فإن قيل**: وإذا حصلت الشمسُ في السرطان فها هنا وإن حصل الشمس في البرج البارد الرطب إلا أنها على سمت الرأس فلا جرم قوي الحر بهذا السبب، **قلنا**: هذا باطل بكونها في الأسد لأن الشمس حال كونها في الأسد تباعدت عن سمت الرأس مع أن الحر عند كون الشمس في الأسد أشد وأقوى، وهذه الاعتبارات دالة على أن تغيّر أحوال العالم بسبب تقدير الصانع الحكيم المختار لا بسبب أحوال الأنجم والأفلاك.

الوجه الخامس: أن القوم لما سلموا أن هذه البروج مُختلفة في الطبائع والماهيات فإن واحداً منها يقتضي السخونة واليبوسة والآخر يقتضي البرودة والرطوبة فلولا اختلافها في الماهيات لما اختلفت[2] آثارها، وإذا كانت هذه البروج مختلفة الطبائع والماهيات كان الفلك مركباً من أجزاء مختلفة الطبائع والحقيقة كما أن الإنسان مركب من أعضاء مختلفة وأجزاء غير متساوية في الحقيقة والماهية، وكل مركب فإنه ينتهي لا محالة إلى الانحلال والاختلاف ومباينة كل واحد من تلك الأجزاء المتنافرة

---

(1) زيادة من (ب).
(2) في الأصلين: (وإلا لما اختلفت).

المتعاندة[1] عن صاحبه وهذا يقتضي أن السموات تنشق وتخرُب ولا يبقى تركيبها وهو مطابق للقرآن العظيم، ولنكتف بهذا القدر من الكلام في البروج والمنازل، وبالله التوفيق.

النوع الثالث في المباحث المتعلقة بالشفق:

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: 16- 19]، واعلم أن تركيب لفظ الشفق في أصل اللغة لرقّة الشيء ومنه يقال: شيء شفق إذا كان رديئاً لضعفه ورقة وجوده، وأشفق عليه إذا رقّ قلبه عليه والشفقة رقة القلب، ثم اتفق العلماء على أنه اسم الأثر الباقي من الشمس في الأفق بعد غروبها ثم اختلفوا فيه فذهب عامة العلماء إلى أنه هو الحمرة وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، ومن أهل اللغة قول الليث والفراء والزجاج وعن أبي حنيفة في إحدى الروايتين أنه البياض، وروى أسيد بن عمرو أنه رجع عنه، واحتج الأولون على قولهم بوجوه:

الحجة الأولى: قال الفراء سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان ذلك الثوب أحمر فدل ذلك على أن الشفق هو الحمرة.

الحجة الثانية: أن الأمة مجتمعة على أن زوال الشفق هو وقت العشاء الأخير فوجب أن يكون المعتبر هو الحمرة لا البياض لأن البياض يمتد وقته ويطول لبثه، والحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس عن الأفق ذهبت الحمرة.

الحجة الثالثة: أن اشتقاق الشفق لما كان من الرقة ولا شك أن ضوءه يأخذ في الرقة والضعف من بعد غيبوبة الشمس فتكون الحمرة شفقاً، أما من قال أنه البياض فقد احتج بوجوه:

الحجة الأولى: أنّا بينّا أن اشتقاق هذا اللفظ يدل على الضعف والبياض الباقي أثر ضعيف بقي من الشمس فوجب أن يكون مسمى باسم الشفق.

الحجة الثانية: أن صلاة الصبح وصلاة العشاء صلاتان واقعتان على

---

(1) في (أ) المتعامدة.

الطرفين[1]، فلما كان وقت صلاة الصبح بطلوع البياض وجب أن يكون وقت صلاة العشاء بغروب البياض، أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ فقال أهل اللغة: وسق أي: جمع ومنه الوسق وهو الطعام المجتمع الذي يكال ويوزن، ثم صار اسماً للجمل واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت، فقال القفال: مجموع أقاويل المفسرين يدل على أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ على جميع ما تجمعه الليل من النجوم ورجوع الحيوان عن الانتشار وتحرك ما تحرك فيه من الهوام، ثم هذا يحتمل أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها يشتمل عليها الليل فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38-39] وقال سعيد بن جبير: المراد من قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ الأعمال التي عملت في الليل، قال القفال: يحتمل أن يكون ذلك تهجد العباد فقد مدح الله تعالى المستغفرين بالأسحار فجاز أيضاً أن يحلف بهم، وإنما قلنا: إن الليل جمع هذه الأشياء كلها لأن ظلمته كأنها تجلل الجبال والبحار والشجر والحيوانات فلا جرم صح أن يقال: وسق الليل: جمع هذه الأشياء.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ فاعلم أن أصل الكلمة من الاجتماع يقال: وسقته فاتسق كما يقال وصلته فاتصل، قال ابن عباس: والقمر إذا اتسق أي: استوى واجتمع وتكامل واستدار وذلك اليلة الرابعة عشرة ثم قال: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ وفيه مسائل:

الأولى: قُرىء "لتركبن" بضم الباء على خلاف الجنس لأن النداء في قوله على خطاب الإنسان: «إنك كادح» للجنس ولتركبن بكسر الباء على خطاب النفس وليركبن بالياء على معنى ليركبن الإنسان المسلة.

الثانية: الطبق ما يطابق غيره يقال: ما هذا بطبق كذا أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: طبق وأطباق الثرى ما تطابق منه ثم قيل: للحال المطابقة بغيرها طبق ومنه قوله تعالى: «طبقاً عن طبق» أي: حالاً بعد حال كل واحد متطابقة لأخيها.

ولنذكر وجوه المفسرين فنقول: أما القراءة برفع الباء وهي خطاب للجمع

---

(1) في (أ) على الطرفين في الليل.

فيحتمل وجوهاً:

الأول: أن يكون المعنى أيها الناس لتركبن أموراً وأحوالاً صعبة حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر ومنزلاً بعد منزل إلى أن يستقر الأمر على ما يقضي به على الإنسان من جنة أو نار فحينئذ يحصل الدوام والخلود إما في الثواب أو في العقاب، ويدخل في هذه الجملة الناس ويكون أحوال الإنسان من حيث يكون نطفة إلى أن يصير شيخاً ثم يموت فيكون في [الضريح] ثم يحشر ثم ينقل إما إلى الجنة وإما إلى النار.

الثاني: أن يكون معنى الآية أن الناس يلقون يوم القيامة أحوالاً وشدائد حالاً بعد حال وشدة بعد شدة، كأنهم لما أنكروا البعث أقسم الله ﷻ أن البعث كائن والناس يلقون فيه الشدائد والأهوال إلى أن يفرغ الله من حسابهم فيصير كل واحد إلى ما أعدّ له من جنة أو نار نسأل الله العافية وهو قوله جل وعز: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: 42]، وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: 17].

الثالث: أن يكون المعنى أن الناس ينتقل أحوالهم فمن منعم يشقى ومن شقي ينعم وهو كقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: 3]، وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية لأنه تعالى لما ذكر حال من يؤتى كتابه من وراء ظهره أنه كان في أهله مسروراً وكان يظن أن لن يحور أخرى، فالله تعالى أخبر أنه يحور ثم أقسم إن الناس يركبون في الآخرة طبقاً عن طبق أي حالاً بعد حال.

الرابع: أن يكون المعنى لتركبن شبه أولاء ممن كان قبلكم في التكذيب [بيوم] القيامة. وأما القراءة بنصب الباء في[1] قوله لتركبن ففيه أقوال:

الأول: أن يكون بشارة للنبي ﷺ بالظفر والغلبة على المشركين المكذبين بالبعث كأنه قال: أقسم يا محمد لتركبن حالاً بعد حال حتى يختم لك بحميد العاقبة فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم ويتفرع على هذا القول احتمالان:

أحدهما: أن يكون المعنى أنه يُركب حال ظفر وغلبة بعد حال خوف وشدة.

---

(1) في الأصل: إلى.

الاحتمال الثاني: أن يكون المعنى أن الله تعالى يبدله بالمشركين أنصاراً للمسلمين ويكون مجاز ذلك من قولهم: طبقات الناس.

والقول الثاني: أن يكون ذلك بشارة لمحمد ﷺ بصعوده إلى السماء ليشاهد ملكوتها ويشاهد أحوال الملائكة والمعنى: لتركبن يا محمد السمٰوات طبقاً عن طبق وقال تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ وقد فعله الله ذلك له ليلة الإسراء وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود.

القول الثالث: لتركبن يا محمد درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى.

القول الرابع: في هذه القراءة هذه الآية واردة في شرح أحوال السمٰوات والمعنى: لتركبن السماء يوم القيامة حالة بعد حالة وذلك لأنها أولاً تنشق كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ ثم تنفطر كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ ثم يصير وردة كالدهان وكالمهل على ما ذكر الله تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن، وكأنه لما ذكر في أول السورة أنها تنشق أقسم في آخرها [بأنه][1] ينتقل من أحوال إلى أحوال وهذا الوجه مروي عن ابن مسعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ والله أعلم بما يكون.

النوع الرابع في المباحث المتعلقة بالظلال:

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: 15]، وقال في سورة النحل: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: 48]، وقال في الفرقان: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: 45].

هذا ولنشرع في تفسير هذه الآيات المذكورة في سورة الفرقان فنقول: إنه تعالى استدل بحال الظل في زيادته ونقصانه وتنقله من حال إلى حال. وذلك دلالة على وجود الصانع الحكيم. أما قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ففيه وجهان:

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

أحدهما: أنه من رؤية العين. **والثاني**: من رؤية القلب. هو العلم فإن حملناه على رؤية العين فالمعنى: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وإن حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى: ألم تعلم وهذا أولى وذلك لأن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله في تمديده غير مرئي بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث أن كل متقلب ممكن فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من حمله على هذا الوجه.

واعلم أن المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول ﷺ بحسب ظاهر اللفظ إلا أن الخطاب عام في هذا المعنى، لأن المقصود بالآية بيان أنعام الله تعالى بخلق الظل، وجميع المكلفين مستوجبون[1] في أنه يجب كونهم معترفين متنبهين لهذه النعمة واستدلالهم بها على وجود الصانع الحكيم ﷻ، والكلام الملخص يرجع إلى وجهين:

الأول: أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأبنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها المزاج، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية العارضة من الشمس فهو لقوتها تبهر حسن النظر وتعيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذاً أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة فقال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.

إذا ثبت هذا فنقول: أنه تعالى بيّن أن هذا الظل من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئاً سوى الجسم وسوى اللون، ولا يعرف أن الظل أمر ثالث به يكمل الانتفاع بمحسوسات هذا العالم فإذا طلعت الشمس ووقع ضوئها على أجسام هذا العالم زال ذلك الظل، فلولا وقوع ضوء الشمس على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً وحقيقة لأن الأشياء إنما يعرف بأضدادها ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه ﷻ لما أطلع الشمس على الأرض زال الظل فحينئذ ظهر للعقول أن للظل كيفية زائدة على الجسم واللون. فلهذا قال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: جعلنا الظلال بما فيها من المنافع والخيرات[2]، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجودها بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلاً على وجود

(1) في (ب) مشتركون.
(2) في (أ) أي خلقنا الأظلال ما فيها.

كيفية الظل الذي هو منشأ المنافع الكثيرة ثم قبضناه أي: أزلنا الظل لا دفعة واحدة بل يسيرًا يسيرًا فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب، ولما كانت الحركات الكائنة لا توجد دفعة بل يسيرًا يسيرًا فكذا زوال الأظلال لا يكون دفعة واحدة بل يسيرًا يسيرًا، وأيضاً فقبض الأظلال لو حصل دفعة لاختلت المصالح لكن قبضها يسيرًا يسيرًا يفيد رعاية مصالح العالم والمراد بالقبض الإزالة والإعدام وهذا أحد التأويلين.

التأويل الثاني: أنه ﷻ لـمّا خلق السماء والأرض ما خلق الشمس ولا القمر والكواكب فوقع ظل السماء على الأرض فحصلت ظلمة شديدة متكاثفة في الأرض، ثم إنه خلق الشمس دليلاً عليه وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فإنهما متعاقبان ومتلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر، كما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل يلازمه فكذلك الأظلال كأنها مقتدية وملازمة للأضواء فهذا هو المراد من جعل الشمس دليلاً عليها.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فإما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيرًا يسيرًا إلى غاية نقصانها فسمى إزالة الأظلال قبضاً لها، أو يكون المراد من قبضتها يسيراً يسيراً قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الأظلال وقوله: «يسيرًا» كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ فهذا هو التأويل المخلص[1].

إذا عرفت هذا فنقول: الاستدلال به على وجود الصانع المحسن الرحيم ظاهر وذلك لأن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء وأما حصول الضوء الخالص والظلمة الخالصة فهو موجب المضار لا للمنافع، وذلك لأن التركيب الإنساني تركيب ضعيف والحواس الإنسانية لا تطيق إدراك الكيفيات القوية واعتبر أن النظر إلى الضوء القوي يعمي البصر وسماع الأصوات القوية يورث الصمم وملامسة الحر القوي أو البرد القوي يورث الموت بل لا بد من الاعتدال في المدركات والمحسوسات والظل كيفية معتدلة كأنها كيفية متولدة من امتزاج النور والظلمة فثبت أن كيفية الظل من المنافع العظيمة.

---

(1) في (أ) الملخص.

إذا ثبت هذا فنقول: هذه الكيفية إما أن تكون من الواجبات أو من الجائزات والأول باطل وإلا لما تطرقت التغييرات إليه فهو إذن من الجائزات فلا بد لوجوده بعد العدم ولعدمه بعد الوجود من صانع قادر رحيم محسن يقدر هذه الأظلال في قوتها وضعفها[1] بالمقدار النافع، ويقدر بقائها وانتقالاتها بالمقادير النافعة وما ذلك إلا أنه سبحانه خصص الشمس والقمر والنجوم كل واحد منها بمقدار خاص من الضوء وبمقدار خاص من قوة الإضاءة ومقدار خاص من الحركة في الجهة والبطء والسرعة وما ذاك إلا من المحسن الرحيم الحليم. فهذا هو الكلام في الاستدلال بوجود هذه الأظلال على الصانع الحكيم.

واعلم أن للأظلال أنواعاً من الخواص العجيبة:

الخاصية الأولى: أن الأظلال في أنفسها متحركة إلا أن الحس لا يشاهد حركتها ألبتة وأما أنّ العقل قاطع بكونها متحركة وذلك لأن الحس شاهد بانتقال الظل من مكان إلى آخر ولولا حركتها إلى مكان آخر لما حصل هذا الانتقال، وأما أن الحواس لا يشاهد حركاتها فالأمر ظاهر فيه.

النوع الخامس في المباحث المتعلقة بالنجوم:

اعلم أنه تعالى ذكر في القرآن أنواعاً من منافعها:

الأول: كونها زينة للسماء.

الثاني: كونها رجوماً للشياطين والله سبحانه ذكر هاتين المنفعتين معًا في آيتين:

أحدهما قوله تعالى في الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات: 6 - 9].

والثانية: قال في سورة الملك: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 5]، وذكر تعالى في سورة الجن هذه المنفعة الثانية وهي كون هذه الكواكب رجوماً للشياطين فقال حكاية عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ [الجن: 8].

---

(1) في (أ) من فوقها وجعلها.

ولنتكلم في شرح هاتين المنفعتين:

أما المنفعة الأولى: وهي كون هذه النجوم زينة للسماء الدنيا ومصابيح فيها فاعلم أن هذا مشتمل على بحثين:

الأول: كونها زينة ومصابيح كما قال في سورة الملك، وذلك لأن المصابيح هي السُرج والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فكأنه قيل: **ولقد** زينا سقف الدار التي أسكنتم فيها بمصابيح أي بمصابيح لا تساويها مصابيحكم في الإضاءة.

والبحث الثاني: أن ظاهر هذه الآية يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في سماء الدنيا لكن أصحاب الهيئة والنجوم اتفقوا على أن هذه الثوابت مركوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق أكبر السيارات، واحتجوا عليه بأن بعض هذه الثوابت في الفلك الثامن وذلك لأن الثوابت التي تكون قريبة من المنطقة واقعة في ممر السيارات تنكسف بهذه السيارات والمكسوف لا بد أن يكون فوق الكاسف، فهذه الثوابت فوق أكبر السيارات الكاسفة وإنما قلنا أنه لما كان بعض الثوابت في الكرة الثامنة وجب أن يكون كلها في الكرة الثامنة لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة تقطع في كل مئة سنة درجة واحدة وإذا كانت هذه الثوابت متشابهة في الحركة وجب أن يكون كلها مركوزة في كرة واحدة.

واعلم أن هذه الحجة ضعيفة فإنه لا يلزم من تشابه الثوابت كلها في الحركات كونها بأسرها مركوزة في كرة واحدة لأنه لا يمتنع في العقل وجود كرة تحت كرة القمر وتكون متشابهة في البطء للكرة الثوابت وتكون الكواكب التي لا تنكسف بهذه السيارات مركوزة في هذه الكرة السفلية التي هي سماء الدنيا، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة ألا ترى أن ممثلات جميع السيارات سوى الشمس متحركة حركة بطيئة متشابهة لحركة فلك الثوابت وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن يكون أكثر هذه المصابيح مركوزة في سماء الدنيا.

فإن قيل: هب أن ما ذكرتم يحتمل إلا أنكم سلمتم أن هذه الكواكب الثابتة في ممرّ السيارات المنكسفة بها مركوزة فوق أكبر هذه السيارات السبعة وحينئذ يعود الإشكال في تلك الكواكب فالجواب من وجهين:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:5] يقتضي أن

يكون سماء الدنيا مزينة بمصابيح وليس فيها دلالة على أن كل الكواكب في هذه السماء، أما قوله في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ فصيغة الجمع وإن كانت تفيد الاستغراق إلا أن إطلاق لفظ العموم لإرادة الأكثر مجاز مشهور في القرآن.

الوجه الثاني: في الجواب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ لا يقتضي كون الكواكب موجودة فيها وذلك لأن السمٰوات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سمٰوات أخرى فوقها فهي لا بد أن تظهر في سماء الدنيا متزينة بهذه المصابيح.

المنفعة الثانية للكواكب كونها رجوماً للشياطين:

روي أن الجن كانوا يصعدون إلى السمٰوات ويسمعون الأخبار ويرجعون إلى الأرض ويلقونها على الناس فكان يصير سبباً لتمكن الكهنة من الإخبار عن المغيبات، فلما بعث الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منهم مسترقاً للسمع رمي من هذه الكواكب بشهاب فأحرقه فهذا هو السبب في انقضاض الشهب وهو المراد من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾، ومن الناس من طعن فيه واحتج بوجوه:

الحجة الأولى: أن انقضاض الكواكب أمر مذكور في كتب الفلاسفة قالوا: إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس فإذا بلغ كرة النار احترق بها فتلك الشعلة هي الشهاب، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال: السبب فيه رمي الجن بالشعلة من النار؟

الحجة الثانية: أن هؤلاء الجن كيف يعقل أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم كلما استرقوا السمع احترقوا ثم إنهم يعودون مع ذلك إلى مثل صنيعهم، فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة واحدة أو ألف مرة امتنع أن يعود إليه من غير فائدة؟

الحجة الثالثة: أنه روي في الأخبار أن ثخن كل واحد من السمٰوات مسيرة خمسمئة عام فهؤلاء الجن إن قدروا على خرق هذه السمٰوات مع عظمها فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾؟ وقال: ﴿وَمَا لَهَا

مِن فُرُوجٖ﴾ [قٓ:6] ووصفها بالشدة: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبإ:12] وإن لم يقدروا على خرق اتصال السمٰوات فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة مع هذا البعد العظيم؟ ثم إن عقل أنهم سمعوا أسرار الملائكة من هذا البعد العظيم فلم لا يسمعون تلك الأسرار من الأرض أيضاً؟ وحينئذ لا تبقى فائدة في تبعيدهم عن السماء.

الحجة الرابعة: أن الملائكة عليهم السلام إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلية إما لأنهم طالعوها من اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقوها من وحي الله ﷻ إليهم وعلى التقديرين فلِم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الشياطين من الوقوف عليها لاسيما وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ فإذا لم يأذن الله لهم في ذلك لا يذكرونه وإذا لم يذكروه عجز الشياطين عن الوقوف عليه.

الحجة الخامسة: أن القرآن دل على أنّ الشياطين مخلوقون من النار، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ والنار لا يحرق النار بل يقويها فكيف يعقل أن يقال إن الشياطين دُحروا عن استراق السمع بهذه الشهب؟

الحجة السادسة: أنّا قلنا إن هذا القذف كان لصون المعجزات عن شبهات الكهنة فلِم دام ذلك بعد وفاة الرسول ﷺ؟

الحجة السابعة: أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك:5] دلّ هذا على أنه تعالى خلق الكواكب لهاتين المنفعتين فإذا كان إحدى المنفعتين وهي التزيين كانت موجودة قبل مبعث النبي محمد ﷺ وجب أن تكون المنفعة الثانية أيضاً كانت موجودة قبل المبعث.

الحجة الثامنة: أن وصف هذا الانقضاض جاء في شعر الجاهلية، قال بشر بن أبي حازم:

والعير يرهقها الغبار وجحشها ... ينقض خالفها انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر:

وانقض كالدُري يتبعه ... نقع يثور تخاله ظبياً

وقال عون بن الجزع:

يردّ علينا العير من دون ألفة ... أو الثور كالدري يتبعه الدم

obeikandi.com

الحجة التاسعة: روي عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال: «بينا رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال عليه أفضل السلام: **«ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟»** فقالوا: كنّا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال ﷺ: **«إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته»**. قالوا فثبت بهذه الوجوه أن هذه الشهب لا يجوز ألا يكون المعنى فيها ما ذكرتم.

والجواب عن الشبهة الأولى: أنّا لا ننكر إن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي محمد ﷺ لمنافع أخرى، إلاّ أن ذلك لا ينافي أنها بعد المبعث قد حصلت بسبب وهو دفع الجن وزجرهم. يروى أنه قيل للزهري: أكان يرمي في الجاهلية؟ قال: نعم أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9]، قال: غلّظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ.

والجواب عن الشبهة الثانية: أنه إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منهم الاختلاف لطغيانها وضلالها أوقع في قلوبها من الدعاوى المطمعة في ذلك المقصود ما عندها يقدم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار.

والجواب عن الشبهة الثالثة: أنّا نسلم أن البعد بين كل سماء مسيرة خمسمئة عام وأما ثخن كل فلك فلعله لا يكون عظيماً.

والجواب عن الشبهة الرابعة: ما روى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس وذكر قصة الرمي بالنجوم فقال ﷺ: **«أنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته»** ولكن ربنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبّحت حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى سماء الدنيا ثم يستخبر: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم لإنزال ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى سماء الدنيا فيتخطفه الجن فيرمون.

والجواب عن الشبهة الخامسة: إن النار قد تكون أقوى من نار أخرى والأقوى يبطل الأضعف.

والجواب عن الشبهة السادسة: ما بينا من أن الشهب كانت موجودة لسائر المنافع إلا أنها زمان النبي محمد ﷺ شدّت وغلظت لهذا المقصود الآخر، فعند زوال بعض المقاصد لا يجب زوال الشهب. وهذا هو الجواب عن بقية الشبهات في حكم الشهب وبالله التوفيق.

المنفعة الثالثة: في تخليق الكواكب في أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر قال تعالى: ﴿وَعَلَامَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: 16].

المنفعة الرابعة: أن يستدل بحركاتها التسخيرية على وجود الصانع الحكيم كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: 54]، فهذه هي المنافع المذكورة في القرآن العزيز وأهل التجارب ذكروا وجوهاً أخرى:

منها أن يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء وذلك أنه إذا تكاثف السحاب في الليل عظمت ظلمة الليل وذلك بسبب أن السحاب تحجب أنوارها ولا يبعد إدخال هذه المنفعة تحت قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:16] فإن ذلك القدر من الإضاءة إذا حصل ترتب عليه الاهتداء.

ومنها أنه يحصل بسببها تفاوت في الفصول الأربعة وذلك لأنها أجسام عظيمة نورانية فإذا قاربت الشمس كوكبا دُريّاً مسخناً صار الضعيف أقوى حراً وهو مثل نار يضم إلى أخرى فلا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى.

ومنها أنه يستدل ببعض الكواكب على معرفة القبلة ولا شك أنها من المهمات. واعلم أنه ﷻ بيّن أن له في تخليق البعوضة حِكماً عظيمة فقال جل من قائل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]، فإذا كانت خلقة البعوضة لا تنفك عن حِكم باهرة ودلائل قاهرة فكيف يجوز انفكاك خلقة هذه النجوم السريعة والكواكب النورانية الدرية المنيفة عن حكم شريفة وأسرار قدسية، فجميع أجزاء العالم بسماواته وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حِكم كبيرة باهرة عرفناها أو لم نعرفها، فسبحانه هو الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء. هذا ما ظهر لي والله أعلم بما خلق.